

روايات مصرية للجيب
22
فانتازيا
قلعة السفاحين
Looloo
www.helmelarab.net

مقدمة

اسمها (عبير عبد الرحمن)

إنها لا تملك شيئًا من رقة اسمها ، ورشاقة اسمها ..

إن (عبير) ليست جميلة بأىّ مقياس ، ولا تجيد القتال أو قيادة السيارات ، وليست عالمة أو أديبة ممثلة ، ولا تملك مؤهلاً دراسيًّا محترمًا ..

إن (عبير) هى إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة .. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها .. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة ..

لقد قابلت (عبير) (شريف) .. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم ـ والأهم من هذا ـ العبقرى .. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًّا ولا تملك أىّ ذكاء .. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذى ابتكره ، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء ، وإعادة برمجتها فى صورة مغامرات متكاملة ..

ولأن (عبير) تقرأ كثيرًا جدًّا .. ولأن عقلها مزدحم

بأبطال القصص ومواقف القصص ؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة ..

(عبير) سترى القصص التى عشقتها .. ولكن مع تحوير بسيط : إنها ستكون جزءًا متفاعلاً فى كل قصة ! ستطير مع (سوبر مان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان) .. وتغوص فى أعماق المحيط مع كابتن (نيمو) ..

وتزوج (شريف) (عبير) .. ربما لأنه أحبها حقًّا .. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد .. ونعرف أن (عبير) حامل ..

وتواصل (عبير) رحلاتها الشائقة إلى (فانتازيا) .. ترى الكثير وتعرف الكثير .. وفى كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة ..

إن (عبير) تنتمى إلى (فانتازيا) .. أرض الخيال التى صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة .. وأعاد تقديمها لها من جديد ..

(فانتازيا) هى المهرب من براثن الواقع .. وكل الوجوه التى لا تتغيّر ..

(فانتازيا) هى الحلم الذى صاغته عبقرية الأدباء

على مرّ السنين .. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه .. لكن هذا فى مقدورنا الآن ..

لسوف نرحل جميعًا مع (عبير) إلى (فانتازيا) .. نضع حاجياتنا وهمومنا فى القطار الذاهب إلى هناك ..

هو ذا جرس المحطة يدق .. وهدير المحركات يدوى .. إذن فلنسرع !

★ ★ ★

١ـ أخبار من (نيسابور) ..

ملثمة متشحة بالسواد تترجل من فوق جوادها ...

شامخة عاتية تتقدَم ، ويدها لا تفارق الخنجر المتدلى من نطاقها ..

الطقس حارّ ينذر بالويل ، والهواء ثقيل على الأنفاس له رائحة الصحراء وجفافها وقسوتها ..

ثمة عقرب يفرّ هاربًا من بين قدميها ، وثعبان يتوارى وراء صحراء .. ومن بعيد ترى القلعة وسط الغبار ..

إنها ليست قلعة بالضبط كما نتخيلها وكما تخيلتها هى ، لكنها أقرب إلى مجموعة من الجدران الحجرية العملاقة ..

الأسوار مدججة بالرجال المتشحين بالسواد ، والذين تدججوا بدورهم بكل وأحدث أنواع السلاح لهذا العصر ..

وعلى الباب يقف حارس له لحية مشعثة مجنونة ، وفى عينيه نظرة أكثر جنونًا .. ويسألها فى غلظة :

- « كلمة السرّ ؟ »

- « خوداه حافظ .. »

فيفتح لها الباب المعدنى العملاق ، وتدخل فى ثبات إلى الداخل حيث تنتظرها قلعة الموت ..

★ ★ ★

إنها (عبير) صديقتنا الدائمة ، المذعورة كقطة صغيرة ، الحالمة كأنسام ليلة صيف ، الخيالية كـ .. كـ .. كـ (عبير عبد الرحمن) ذاتها ...

ما الذى أرسلها إلى هنا ؟ بالطبع نعرف الإجابة .. إنه (دى جى ـ ٢) .. جهاز الأحلام الذى اخترعه زوجها ، والذى أدمنت استخدامه حتى النخاع ..

لماذا جاءت هنا ؟ هى لم تختر ذلك ولم تطلبه .. لقد حدث خلل ما فى الجهاز ، وبالذات فى التعديل الذى أضافه (شريف) مؤخرًا .. التعديل الذى يسمح له بأن يختار الحلم مسبقًا ..

طبعًا طلبت من (شريف) أن يختار لها حلمًا مناسبًا ، وكانت تتوق إلى تجربة إحدى قصص ألف ليلة وليلة .. ربما عالم ألف ليلة وليلة بأسره .. كانت منبهرة بذلك العالم خاصة وأنه - تقريبًا - عالم المغامرات الوحيد الذى يحمل طابعًا عربيًا أو شرقيًا .. من العسير على المرء أن يجد قصة بوليسية أو قصة أشباح أو قصة (بيكاريسك) فى الأدب العربى ، ربما باستثناء ما قرأته للمغامرين الخمسة ورجل المستحيل .. إلخ .. طبعًا كان هناك أكثر من هذا لكنه لم يصل لعلمها ..

قام (شريف) ببرمجة الجهاز لينقلها إلى عوالم ألف ليلة وليلة ، لكنه فيما يبدو أخطأ .. لقد نقلها إلى عالم شبيه بها .. عالم يدور حول (بغداد) و (خراسان) و (نيسابور) ، وفيه مآذن وخلفاء وقضاة وعسس ..

المشكلة الوحيدة كانت أنه عالم قاس متوحش ، وأنه عالم حقيقى من طراز (حدث بالفعل) يعود للقرن الحادى عشر ..

وحين فطنت إلى المأزق الذى وقعت فيه ؛ كان أوان التراجع قد تأخر كثيرًا ..

★ ★ ★

وقال لها (المرشد) وهو يقتادها عبر أسوار (نيسابور) :

ـ « غريب أن تعودى إلى قطاع (الألعاب التاريخية) .. حسبت أنك زهدته بعد قصتك مع (هنرى الثامن) حين كادوا يقطعون رقبتك فى برج (لندن) .. لم تجدى الكثير من المرح فى تلكم التجربة .. »

قالت له وهى تتأمل الباعة من حولها :

ـ « لم أختر هذا المكان .. المفترض أننى فى عالم (ألف ليلة وليلة) .. »

ـ « إذن لماذا تركت (بغداد) وجئت هنا ؟ أنت يا صغيرتى فى عصر الدولة الفاطمية .. ونحن فى (إيران) الآن حيث يحكم الملوك السلاجقة البلاد .. »

ـ « ليس عندى أدنى تصورَ لهذه القصة .. »

ـ « بالتأكيد قرأتها فى مكان ما يومًا ما ، ربما فى

كتاب أصفر عتيق اشتريته من بائع على الرصيف ببضعة قروش .. ربما فى جريدة ممزقة كانت تلتف حول رغيفين من الخبز .. لا يهم أين قرأتها .. المهم أنها ظلت هنالك تحت صفحة لا وعيك تنتظر اللحظة المناسبة ، وقد جاءت للأسف ! »

ـ « للأسف ؟ »

ـ « نعم .. إنها فترة خطرة مليئة بالقلاقل ، ويُقال إن الرجل لو تأخر فى العودة إلى داره حتى صلاة العصر ؛ يمكن لأهله أن يقيموا عزاءه ، ولن يكونوا مخطئين فى الغالب ! »

ـ « حسن .. وما دورى أنا ؟ »

أخرج من جيبه الكتيب الإرشادى لـ (فانتازيا) ، وراح يراجع كلَّ الصفحات ، ثم قال :

ـ « عليك التوجه إلى سوق القوارير ، ومن هناك ستعرفين ما يجب عمله .. إن مهمتك ليست سهلة جدًّا .. »

ـ « أعتقد ذلك .. »

★ ★ ★

ونعود إلى (عبير) التى تجتاز ممرات القلعة التى ـ ككل القلاع ـ تنيرها المشاعل الرهيبة على الجانبين ، وتمرح الكلاب الضالة هنا وهناك ..

من حين لآخر يبرز رمح جانبى يقطع طريقها ، ويتكرر السؤال :

ـ « كلمة السرّ ؟ »

ـ « خوداه حافظ .. »

فيرتفع الرمح ، وتواصل مسيرتها الطويلة .. رائحة المكان كريهة كالشياطين ، وفى كل صوب ترى الرجال الأشداء فى تمرينات عسيرة على الفهم ..

ثلاثة رجال فى مباراة مصارعة إيرانية عنيفة مما يسمونها (زورخانة) ، حيث تتلاحم الأدرع والسيقان والأفخاذ ، فلا تعرف أى عضو يخص من بالضبط من الرجال ..

رجلان يتسليان بقذف الخناجر على بعضهما ، وقد وقفا متباعدين ، وراح كل منهما يحاول الانحناء فى اللحظة التى يصله الخنجر فيها ..

رجل يحاول تهشيم كومة عالية من الخشب على طريقة الأخ (بروس لى) ، وآخر يحاول بسيفه البتار أن يقطع جذع شجرة يتأرجح من حبل ..

وثمة ثلاثة يتسلقون الجدار الحجرى باستعمال أظفارهم فقط ..

هل هو سيرك أم ماذا ؟

فى النهاية وجدت ساحة واسعة قليلاً ، لا تضيئها إلا المشاعل التى لم تجعل الرؤية رائعة الوضوح .. ذلك الضوء الرقراق الذهبى الذى يجسّد الظلال ، ويلقى الرهبة فى القلوب ..

وهناك كان جالسًا فى صدر المكان على بساط سميك ، وكان منهمكًا فى الكتابة بريشة طاووس على لفافة من رق الغزال ..

كان رهيبًا ، وأضاف إلى رهبته ذلك الرداء الأسود الذى يكسو كتفيه ويتدلى للأرض ليحيطه ببقعة سوداء مهيبة ، ثم إن حاجبيه الفارسيين المتصلين كانا يضفيان على عينيه القويتين مسحة شبه شيطانية ..

عينان قويتان .. قويتان جاءتا من حيث جاءت عينا (راسبوتين) والكونت (دراكيولا) ..

دنت منه بضع خطوات ، ثم دفعها حافز خفى إلى أن تدنو على ركبتيها .. لقد فهمتْ أن هذه هى التقاليد هنا ..

قال أحد الواقفين حوله :

ـ « إنه جاسوسك (أرسلان) قادم من (نيسابور) »

كانوا يتكلمون اللغة الفارسية القديمة ، ولم تجد (عبير) صعوبة فى فهمها كما هى العادة .. دنت أكثر فأكثر ، ومن جديد انحنت ، وقالت :

ـ « التحية لك أيها المعلم .. هناك أخبار عن (عمر الخيام) .. »

بدا الاهتمام على (المعلم) ، فرفع رأسه للمرة الأولى بدلاً من عينيه ، وراح يتأمل وجهها فى شك .. ثم سألها من جديد :

ـ « قلت ما اسمك يا بنىَّ ؟ »

ـ « خادمك (أرسلان) أيها المعلم .. »

طوى ما كان يكتب فيه ، وبتؤدة قال :

ـ « لا أدرى ما تحاول اثباته يا بنى .. لكنك لست (أرسلان) .. »

وهنا خرجت عشرة سيوف من قرابها ..

★ ★ ★

٢ ـ داهيتان وشاعر ..

وتعود الذاكرة بـ (عبير) إلى الوراء .. إلى بداية مغامرتها فى (فانتازيا) بعدما ألقاها (المرشد) فى شوارع (نيسابور) ..

كانت فى تلك المرة ترتدى ثيابًا نسائية .. ثيابًا أنيقة جميلة ، لكنها بالطبع تعود إلى هذا العصر .. لابد أنهن كن يلبسن ثيابًا كهذه فى القرن الحادى عشر ..

كانت شوارع (نيسابور) تماثل بالضبط تخيلها لها : لم تكن تتخيلها على الإطلاق ، ولم يدر بذهنها أن تراها يومًا ما .. أما الآن وهى تمشى فيها ، فقد بدت لها أقرب إلى مدن الشرق كما يتخيلها الغرب ..

بيوت من طابق واحد .. جمال .. نساء منقبات .. باعة .. جنود .. مساجد .. فرسان على خيولهم .. بستان يحيط بدار تنبعث منها نغمات ساحرة على العود .. قرود تؤدى ألعاب الحواة ..

ولاحظت أن السلعة الوحيدة التى تباع وتشترى على جانبى الطريق هى القوارير .. قوارير وكئوس وأكواب من كل الأشكال والألوان والأنواع .. هذا إذن هو سوق القوارير الذى تكلّم عنه (المرشد) ..

مشت فى تؤدة وهى تتأمل كل شىء .. ما أجمله من عالم يطير الألباب ، خاصة رائحة الجو التى هى مزيج لايمكن وصفه ، من روائح الريحان وماء الورد والمرّ والبخور .. لو كانت سائحة غربية لجنت فرحًا ، لكنها مجرد فتاة من (نيسابور) تمشى وسط بيئتها الطبيعية كما هو مفترض ..

وكما يحدث دائمًا فى كل قصة لـ (عبير) فى بدايتها ؛ تعرضت لخطر داهم .. خطر من النوع الذى يفرّ منه المارّة جميعًا ما عداها ..

كان الخطر فى هذه المرة كلبًا متحمسًا ، يركض واللعاب يتطاير من بين شدقيه ، وفى عينيه نظرة مشتعلة مجنونة ..

كلب مسعور ! هذا واضح ..



صرخت ووثبت إلى جانب الطريق ، لتسقط - طبعًا - على عشرات القوارير المتراصة على الأرض .. و ..

وبعد ثانية كان ما توقعته قد حدث .. لقد خلا الطريق ، وفتح أحدهم البالوعة لتمتص كل الزحام ، فلم يعد سواها والكلب على بعد أمتار ..

صرخت ووثبت إلى جانب الطريق ، لتسقط - طبعًا - على عشرات القوارير المتراصة على الأرض .. و ...

كراش ش ش ش ! كروش ش ش ! فلانك ! بش ش ش ش ! لكنها لم تهب شيئًا من هذا ..

كانت تفكر فى ألم العضة القادمة وخطرها ، فى زمن لا يوجد فيه لقاح HDCV أو لقاح الإحدى وعشرين حقنة إياه ..

لكن الكلب لم يفعل .. واصل انطلاقه للأمام بعينين زائغتين لا تريان ، وأدركت أن المرض وصل به لمرحلة متقدمة من الجنون .. حين يشتهى الإيذاء ولا يقدر على تركيز جهوده ..

وابتعد الكلب عنها ..

الآن تنهض ، وفى هذه المرة تدرك أن عشرات الخناجر الصغيرة مغروسة فى كل ملليمتر من جسدها .. الزجاج المهشم فى كل صوب ..

كانت تنزف لكن شرايين عنقها سليمة ولله الحمد ..

هنا فوجئت برجل فظ يثب من حيث لا تدرى ليلوى ذراعها بقسوة ، وصاح فسال اللعاب كشلال ليغرق لحيته :

ـ « لحظة يا حبيبتى ! إلى أين أنت ذاهبة ؟ من يدفع لى ثمن كل هذه القوارير والكئوس الجميلة ؟ »

حاولت التملص لكن كفه كانت كفكى سمكة القرش ؛ فصاحت :

ـ « يا له من سؤال ! لقد كنت على وشك الموت وأنت .. »

ـ « كنت على وشك الموت ، والآن أنت سليمة كالجرس .. أما قواريرى الجميلة .. أجمل قوارير فى (نيسابور) لم تعد كذلك .. »

وازدادت قبضته شراسة ، وبدأ يرجها رجًا ..

ـ « ادفعى ثمن القوارير حالاً ! »

ـ « لكنى ... »

ـ « هذه هى البداية المعتادة ! »

ـ « توقف يا صانع الزجاج ! »

هذه لم تكن منها ، ولكن من رجل ذى قبضة قوية صارمة وضعها على كتف التاجر المفترس ، فاستدار هذا أحمر العينين ، عازمًا على بدء مذبحة ..

قال الرجل فى تؤدة :

ـ « إنها لم تتعمد هذا .. عسير على المرء أن يتفادى كلبًا مسعورًا ويتفادى زجاجك فى الآن ذاته .. هلم .. أحسَبُ هذا كافيًا .. »

وطوّح بصرّة صغيرة تحوى مالاً .. هكذا كان المال يحفظ فى هذا الزمن .. وكانت للتاجر خبرة لا بأس بها .. التقط الصرّة من الهواء ، ووزنها بكفه ، ثم بدا عليه بعض الرضا ، وسرعان ما أطلق ذراع (عبير) ..

ـ « طاب يومك .. إنه كاف .. »

ثم انحنى فى خنوع وتملق ، وأشار إلى متجره :

ـ « أنا كما ترون يا سيدى (نظام الديـن) .. تاجر فقير يعيش من اليد إلـى الفم .. لكنـى أرحب فـى أية لحظة بأن تزورونى لتروا ... »

ورفع عقيرته كأنما ينادى على بضاعته :

ـ « أفخم وأجمل قوارير فى (نيسابور) كلها ! »

ـ « لا عليك أيها النصاب .. سنعود حتمًا .. »

وقفت (عبير) لاهثة تنظر إلى منقذيها ، فوجدتهم ثلاثة فتية ظاهرى الوسامة والقوة ، وفى عيونهم علامات ذكاء لا شك فيه ..

قال منقذها الذى عرفنا أن اسمه (نظام الدين) ، وكان أكثر الثلاثة سلطة كما يبدو :

ـ « لا عليك يا حسناء .. إن التاجر تاجر حتى لو غارت (نيسابور) فى الأرض .. اغفرى لهذا التيس فظاظته .. »

فى سرور غمغم التيس :

ـ « هى هى هى هى ! »

وهنا قال ثانى الفتية ، وهو شاب نحيل أسمر له نظرة زائغة غريبة ، وصوت رخيم هادئ :

«زخارف الدنيا أساس الألمْ   وطالب الدنيا نديم الندمْ
فكن خلىّ البال من أمرها   فكل ما فيها شقاء وهم»(*)

لم تفهم معنى البيتين جدًا ، فهى لم تكن ممن يفهمون الشعر ، لكنها على الأقل أدركت أنه يعزيها كى لا تحزن بشكل ما .. فقالت له :

ـ « شكرًا .. »

أما ثالث الفتية ، فكان من الطراز الذى يبقى أفكاره لنفسه .. هو فقط يواجه العالم الخارجى بابتسامة دبلوماسية لزجة ثقيلة الوطء .. كان له الحاجبان الفارسيان المتصلان ، والعينان الثاقبتان اللتان

(*) كل الرباعيات المذكورة هنا من ترجمة الشاعر الأستاذ (أحمد رامى) وتحقيقه .. عام ١٩٢٤

تعطياته طابعًا شبه شيطانى .. عينان جاءتا من حيث جاءت عينا (راسبوتين) والكونت (دراكيولا) ..

قال لها فى تهذيب قاس صارم :

- « ما اسم الحسناء ؟ »

لم ترتح إليه لحظة ، لكنها أجابت وقد عرفت دورها بوضوح :

- « (شورانكيز) .. »

أشار إلى صدره بثقة وقال :

- « أنا (الحسن بن الصباح) .. هذان زميلاى (نظام الدين) .. »

وأشار إلى أول الفتية الذى أنقذها .. وأردف :

- « .. و (عمر الخيام) .. »

وأشار إلى الثانى الذى أنشد بيتى الشعر ..

هنا دارت الأرض بها .. إنها تعرف (عمر الخيام) طبعًا ، لكنها تذكر شيئًا غامضًا عن هذا الـ (نظام الدين) وصاحبه .. شيئًا غامضًا لكنه رهيب .. ترى ما هو ؟

ومن جديد تساءلت : هل حقًا كان الثلاثة فى زمن واحد ، أم أن هذا أسلوب من أساليب (فانتازيا) المعتادة ، حيث يجتمع (هولمز) و (بوارو) و (ميجريه) فى مكان واحد ؟

الحقيقة - نقولها لأنفسنا لا لها - أن الثلاثة كانوا أصدقاء حميمين فعلاً ، وكانوا فى هذه الآونة يتلقون العلم فى (نيسابور) فى المدارس النظامية .. وهى ما يعادل الأزهر فى ذلك الوقت .. الأزهر الذى كان الفاطميون يباهون به ، ويستقطبون إليه طلاب العلم من كل صوب ..

كان مقدرًا لكل من هؤلاء الثلاثة أن يكون ذا شأن كبير ..

ولسوف تعرف (عبير) هذا بنفسها بعد قليل ..

★ ★ ★

٣ ـ مع (الخيّام) ..

فيما بعد عرفت (عبير) أنه لا أسرة لها .. إنها جارية جاءت من مكان ما فى (آسيا الصغرى) ، وهى تعمل لدى أحد التجار الأثرياء فى (نيسابور) .. رجل طيب القلب أبيض الشعر والنوايا ، كان يعاملها كابنته فعلاً ..

واعتادت أن تذهب إلى السوق من حين لآخر ، أو إلى ساحة المدارس(*) حيث يقف الطلاب يناقشون ما تعلموه ، ومناهج (أرسطو) ، والعقيدة وما إلى ذلك ، فكانت فى الغالب تلقى الفتية الثلاثة إياهم .. إنهم لا ينفصلون كأنهم إطارات دراجة ثلاثية من دراجات الأطفال ، أو قوائم حامل ثلاثى ، أو الأثافى التى كان العرب يطهون طعامهم عليها ..

الأول كان يعاملها بتحفظ ووقار .. الثانى الشاعر كان فيلسوفًا شاردًا ، لكنه كعادة الشعراء كان مستعدًا

(*) كانت فى (نيسابور) وقتها ست جامعات !

للوقوع فى هواها بسهولة .. أما الثالث فكان يعاملها بخبث شديد .. كذئب فى ثوب حمل .. يتظاهر بالتهذيب لكنه يعرف أن المسألة مسألة وقت لا أكثر ، قبل أن تقع فى حبائله ..

مالت نفسها إلى (عمر الخيام) نوعًا .. ولكنها أدركت أنه يعانى من اضطراب شديد فى عواطفه ، مع ميل للاكتئاب يتأرجح مع ابتهاج خارق للعادة .. فلو كانت تفهم الطب النفسى لقالت إنه مصاب بـ (ذُهان اكتئابى انبساطى) .. كان متشككًا يحتقر الحياة لكنه ينغمس فيها بعنف ، راغبًا فى الموت لكنه يخشاه ، مولعًا بتعذيب نفسه كلما رأى الجمال أو استشعر السعادة .. هذا رجل يرى فتاة حسناء بعينه لكن مهجته ترى جمجمتها وهيكلها العظمى الذى تعبث به الديدان ، تحت أطنان من التراب .. يرى الرضيع الضاحك فيتخيل جنازته ..

هذا المزاج الأسود الذى كان يميز (بودلير) و (إدجار آلان بو) و (عبد الحميد الديب) و (أبو العلاء) وكل شاعر عظيم فى الواقع ؛ لم يمنع (عمر الخيام)

من أن يكون طبيبًا بارعًا ، وفلكيًّا حصيفًا ، وخبيرًا بالرياضيات والفلسفة .. بالإضافة إلى أنه كان من أظرف من عرفتْ وأقواهم دعابة .. دعابات حزينة هذا صحيح ، لكنها مضحكة ..

* * *

فى يوم الحادث الشهير ، أخذها إلى ما يشبه المستشفى .. استخرج كل قطع الزجاج التى انغرست فيها ، وطهّر الجروح جيدًا بمادة ما ركبها من الزئبق ..

كان منهمكًا فى عمله ولم يرفع عينيه إليها ؛ لكنه راح ينشد بصوت رخيم :

« تحمّلْ الداء كبير الرجاء
إنك يومًا ستنال الشفاءْ
واشكر على الفقر الذى إن يردْ
أصبحت موفور الغنى والثراء »

سألته وهى تعض على شفتيها ألمًا :

ـ « آى ! ما معنى هذا ؟ »

رفع عينه الواسعة الصافية الحائرة نحوها ، واهتزت لحيته وتساءل :

ـ « هل تفهمين الفارسية ؟ »

ـ « أفهمها لكنى لا أفهم ما تعنيه هذه الفارسية بالذات .. آى ! »

غمغم فى صبر وهو يضمد ذراعها :

ـ « إنها رباعية أدعوك فيها إلى الصبر والأمل فى الشفاء .. وإن اللّه (تعالى) الذى جعلك فقيرة لقادر على أن يجعلك غنية .. »

ـ « هم م م .. ولماذا لا تقول هذا وتنتهى ؟ »

ارتجفت لحيته من جديد .. هذا أول سؤال من نوعه يسمعه فى حياته :

ـ « أنت .. أنت تتساءلين عن جدوى الشعر أصلاً ؟ »

ـ « أعتقد هذا .. آى ! »

نظر إلى أعلى ، وأخذ شهيقًا عميقًا :

ـ « لو كان بوسع الشحرور أن يعرف لماذا يغنى ، لأجبتك عن سؤالك .. »

- « شحرور ؟!! »

وتقلص وجهها تعبيرًا عن عُسر الكلمة ..

فيما بعد ستدرك (عبير) أن (عمر الخيام) لايكفّ عن إنشاد الرباعيات .. ينشدها عند الاستيقاظ وقبل النوم .. ينشدها قبل الأكل وبعده .. ينشدها قبل دخول دورة المياه ، وعندما يخرج منها .. ينشدها حين لايجد شيئًا آخر يفعله ، وينشدها حين يقرر أن ينشدها ..

إنه قطار بضاعة محمل بالرباعيات التى تتساقط منه طيلة الوقت .. وفيما بعد سيجمع (فيتز جيرالد) خمسًا وسبعين منها ، يقدمها للقارئ الإنجليزى عام ١٥٨٩ ، ومن يومها يتحول (الخيام) إلى أسطورة ..

وقد تراوح عدد الرباعيات لدى مختلف المترجمين الغربيين بين خمس وسبعين إلى ثلاثمائة وتسع وعشرين .. ولكن هناك رباعيات كثيرة مدسوسة على (الخيام) وإن كان إثبات هذا عسيرًا .. ببساطة لأن الفوارق بين الفارسية القديمة والحديثة واهية جدًا ، ولأن كل هذه الرباعيات تتحدث عن ذات الأشياء ، ولها نفس الأسلوب والصياغة العروضية ..

لكن الباحثين الجادين يستخدمون كتابًا اسمه (نوروزنامة) كتبه (الخيام) عام ٧٦٨ هجرية .. هذا الكتاب يصلح لمضاهاة الرباعيات مع أفكاره واستبعاد مايبدو شاذًا منها .. الكتاب فى مكتبة (برلين) اليوم ، ويعدّ كنزًا أدبيًا بالغ الأهمية ..

★ ★ ★

سرعان ماتوطدت علاقة حميمة بينها وبين الشاعر المكتئب (عمر الخيام) .. إن النساء يملن إلى الشعراء حتى لو لم يفهمن مايقولون .. للشعر جاذبية خاصة فى روح المرأة سواء كان على شكل عمودى ، أو ذلك الشكل المستحدث الذى ينتهى بنقطتين فى كل سطر .. مجرد منظر الورقة بهذا الشكل يجذبهن ، كما ينجذب أى رجل نحو مباراة كرة قدم أو قدّاحة موضوعة على منضدة أمامه ..

بالنسبة للخيام كان راغبًا فى جعلها تحبّ الشعر .. وبالنسبة لها كان الأمر شبيهًا بمحاولة إقناعها بحبّ السبانخ .. هذا مجهود لاجدوى منه لأن الحبّ لايُعلَم .. الحبّ يجىء من تلقاء نفسه .. كل شىء أو لاشىء ..

لهذا لم تحب الشعر لكنها أحبت الشاعر نفسه .. لم تهو السبانخ لكنها هوت الطبّاخ ..

وراحت ـ محاولة ارضاءه ـ تتظاهر بأنها فى غاية الاستمتاع ، بينما هو يمطرها بوابل لانهاية له من الرباعيات التى كان سيسيل لها لعاب المستر (زوكوفسكى) و (روزن) و (ونفيلد) وسواهم من المستشرقين ..

ـ « نلبس بين الناس ثوب الرياء
ونحن فى قبضة كف القضاءْ
وكم سعينا نرتجى مهربًا
فكان مسعانا جميعًا هباءْ »

فتهز رأسها فى استحسان ، وتقول :

ـ « ياسلاااام ! رائع ! »

ـ « وإن توافِ العشب عند الغدير
وقد كسا الأرض بساطًا نضيرْ
فامشِ الهوينا فوقه .. إنه
غذته أوصال حبيب طريرْ .. »

ـ « طرير ؟!!! »

وتتمنى لو تدسّ حجرًا فى فمه ليخرس قليلاً .. لكنه يزداد نشوة وتواجدًا وينظر للسماء ، ويُسبل عينيه .. لقد ركبه شيطان الشعر ولن ينقذه سوى أن يركله أحدهم ..

ـ « بستان أيامك نامى (الشجرْ)
فكيف لا تقطف غض الثـ .... »

ـ « كفى !! »

ينظر لها فى ذهول كأنه لايصدّق أن هناك من لايحب شعره إلى هذا الحدّ ، ثم يعتريه الخجل فيقطع إنشاده الذى لاينتهى ..

تسأله متلطفة :

ـ « هل (الحسن) و (نظام) يحبّان شعرك ؟ »

ـ « كلاهما مهموم بالدنيا مشغول بها ، ولا وقت لديهما لمثل هذا .. إن (نظام الدين) طموح حقًا ، وراغب فى الوصول إلى أعلى المناصب ؛ أما (الحسن) فداهية وسيصل إلى أعلى المناصب بالفعل ، سواء كان مؤهلاً أم لا .. »

ـ « وأنت ؟ »

ابتسم فى مرارة ، وأمسك بقيثاره وعزف عليه نغمتين ، وقال :

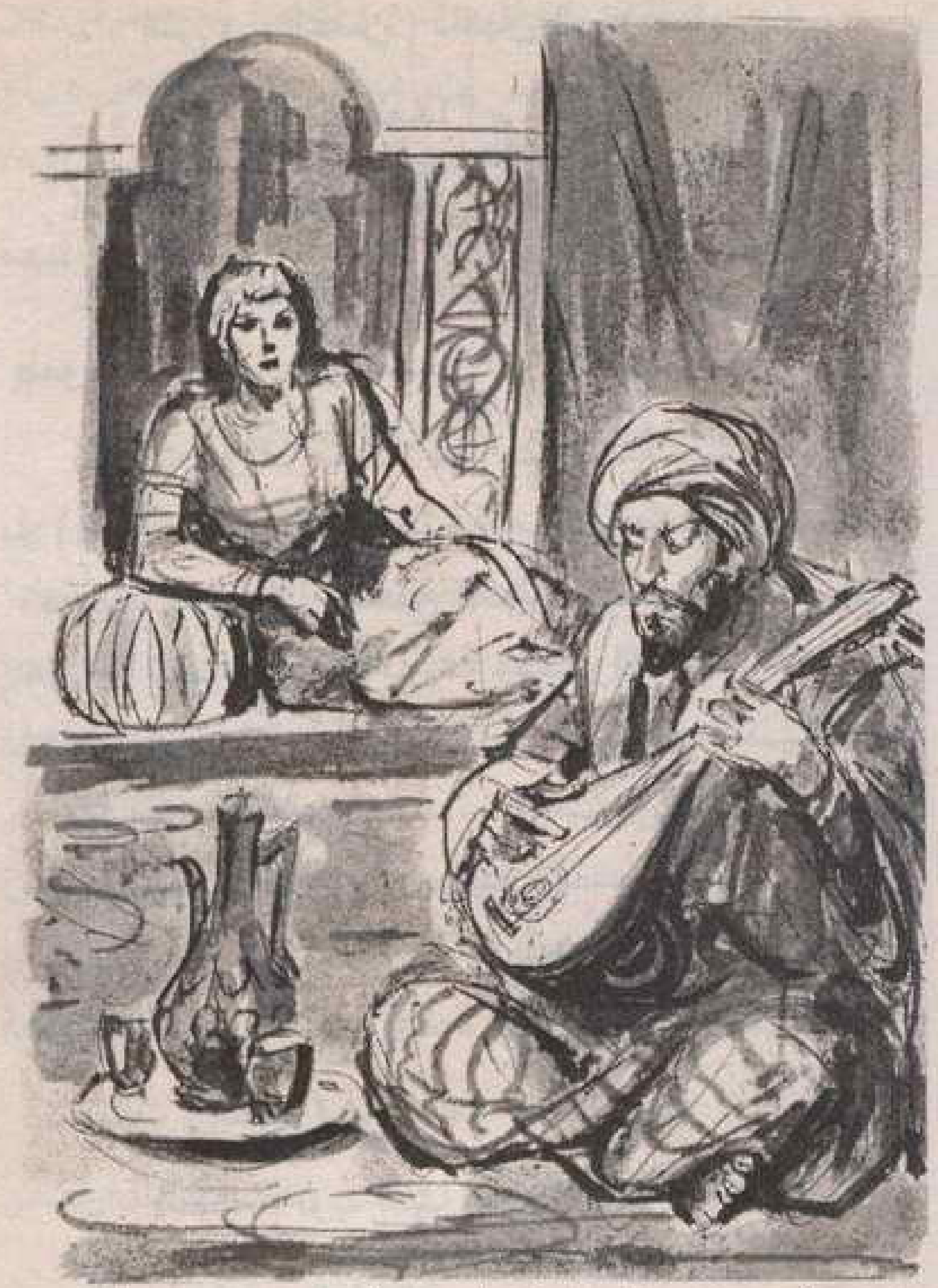
ـ « أنا .. أنا أريد أن أترك وشأنى فحسب ! »

★ ★ ★

لم تكن حياتها فى (نيسابور) مملة أو قاسية .. الحقيقة أن هناك بعض الملل لكن سببه أن شيئًا لا يحدث على الإطلاق ، فهو عصر ترف .. عصر رخاء .. وكما نرى اليوم الدول الإسكندنافية لا تتكلم ـ بعدما حلت كل مشاكلها ـ إلا عن قضايا الوجود والعدم وماهية الإنسان ؛ كان الناس فى هذا الزمن مشغولين بالفلسفة وقضايا الكون ودراسات الفلك ..

مرت أعوام ، وسرعان ما حدث ما توقعه (عمر الخيام) .. لقد رحل (نظام الدين) إلى (أصفهان) حيث تقرّب إلى (ملك شاه) .. كان ذكيًا مهذبًا استطاع أن يشق طريقه سريعًا ليكون وزيرًا للدولة ، وهو فى سن حديثة نسبيًا ..

قال لها (الخيام) وهو يضع جعبته على ظهره :



ابتسم فى مرارة ، وأمسك بقيثاره وعزف عليه نغمتين ، وقال :
ـ « أنا .. أنا أريد أن أترك وشأنى فحسب ! » ..

ـ « إننى و (الحسن) ذاهبان إلى (أصفهان) .. »

ـ « جميل .. ولكن لماذا ؟ »

ابتسم ابتسامة ذات معنى ، وقال :

ـ « لقد تعاهد ثلاثتنا على أن من يصل لتحقيق طموحاته ؛ فعليه أن يجذب الاثنين الآخرين معه .. »

تذكرت موقفًا مماثلاً لها مع صديقتيها (غادة) و (أحلام) .. لقد وعدت كل منهن صديقتيها بأن تجذبهما معها إلى سطح المجتمع بمجرد أن تصل هناك .. كانت (غادة) بارعة الحسن لكنها لن تصير نجمة سينما بالطبع ، وكانت (أحلام) ذكية لكنها لن تكون مدام (كورى) أبدًا .. (عبير) ظفرت بزوج ثرى لكنها لن تكون (كريستينا أوناسيس) التى تملك الجزر والأساطيل .. باختصار لم يتغير شىء ، لكن (نظام الدين) صار وزيرًا .. ولكن لحظة ...

سألت (الخيام) فى شك :

ـ « ظننتك لاتريد شيئًا سوى أن تُترك وشأنك .. »

هز رأسه فى حماسة :

ـ « ومازلت .. وإن وضع (نظام) الجديد كوزير سيحقق لى هذا الحلم .. لن أضطر إلى الركض وراء لقمة العيش ، وسأتفرغ لدراساتى وتأملاتى وشعرى .. »

ثم أمسك بيدها بطريقته المميزة ، التى يرفع فيها كفها بأنامله ، وسألها :

ـ « هل تأتين معى إلى (أصفهان) ؟ »

كان هذا مستفزًا .. أولاً هى ليست ملك نفسها بل هى جارية .. ثانيًا ماذا يظنها هذا الماجن بالضبط ؟ إنه لم يفتح فمه لحظة طالبًا الزواج منها ، ولايبدو أنه سيفتح فاه .. ربما يعتبر الزواج ـ كما يعتبره الشعراء الآخرون ـ قفصًا يسجن خيالات الشعر ، أو قبرًا يذهب إليه المرء تصحبه الزغاريد .. ربما .. لكن الحقيقة هى أنها (عبير) .. فتاة من الطبقة الأدنى متوسطة ، ولا تعتبر أية قصة حبّ مشروعة أو ناجحة مالم تنته بالزواج ..

قالت له هذه الآراء فى كياسة وصبر ، فبدا التأثر فى عينيه ، ورفع عقيرته منشدًا :

ـ « لاتشغل البال بماضى الزمان
ولا بآتى العيش قبل الأوان
واغنم من الحاضر لذاته
فليس فى طبع الليالى الأمان »

سألته فى شىء من تبرم :

ـ « ما معنى هذا بالضبط ؟ »

ـ « معناه أن الفرصة لاتجىء إلا مرة واحدة ، وكما سيقولون بلهجة أكثر عصرية : إما الآن أو لا للأبد .. »

ـ « إذن وداعًا .. لست مغرمة باغتنام الفرص الحالية لأنها موجودة .. إن الغد قد يجىء بأى شىء .. أى شىء أفضل ! »

ترقرقت الدمعة المعتادة فى عينيه ، وغمغم :

ـ « أهو فراق إذن ؟ »

ـ « هو فراق حتى اللقاء .. اللقاء الذى أراه لائقًا ومناسبًا .. »

وانتزعت كفها وابتعدت ..

تبًا للخيال الشعرى ! لابد أنه ينشد رباعية جديدة عن الفراق وقسوة المحبّ وهو يرمقها تبتعد .. وكانت تعرف ما سيحدث بدقة ..

سيتألم بعض الوقت ثم ينساها فى (أصفهان) ..

حتمًا سينساها فى (أصفهان) ..

★ ★ ★

٤ ـ شطرنج وأشياء أخرى ..

فيما بعد عرفت (عبير) تفاصيل ما حدث فى (أصفهان) ..

لقد دخل الصديقان المتهيبان ـ (عمر الخيام) و (الحسن الصباح) ـ على صديقهما الوزير (نظام الملك الطوسى) .. كان جالسًا مع حاشيته يصدر أوامره حين رأى صديقى صباه يدخلان .. أشار بيده ليصرف من حوله ، ثم تهلل وجهه بحق .. كان قد اكتسب سنوات من العمر ، وزادته التجارب قوة شخصية ظهرت فى نبرات صوته وفى تقاطيع وجهه ..

فلما رآهما متحفظين ، صاح فى مرح :

ـ « يا لكما من أحمقين ! نحن الآن وحدنا ! »

وانفجر ضحكًا بينما الصديقان يغوصان فى حضنه ، وأدركا أن (نظام) ما زال هو (نظام) .. لم يبدله شىء ..

أولم لهما فأكلا وشربا كما لم يفعلا من قبل ، ثم سألهما عما أحضرهما إلى (أصفهان) .. كالعادة التزم (الصباح) الصمت أما (الخيام) فقال :

ـ « أحضرنا وعد قديم من صديق كريم .. »

فكّر حينًا وقضم قضمة من أجاصة كانت أمامه ، ثم عاد يسأل :

ـ « بم وعدت بالضبط ؟ »

ـ « ذلك الوعد بصدد أن يرفع من يعلو منا صديقيه إلى السطح .. »

ابتسم (نظام) فى خبث ، ومال أكثر للأمام وتساءل :

ـ « وماذا تريد أنت أيها الشاعر الفيلسوف كى تطفو إلى السطح ؟ »

فكر (الخيام) أو تظاهر بأنه يفكر ، ثم قال فى كياسة :

ـ « أريد ألا أنشغل بأمور الدنيا .. هب لى راتبًا سنويًا فى (نيسابور) يسمح لى بالتفرغ لتأملاتى وشعرى .. »

ـ « لك هذا .. لك ١٢٠٠ مثقال من الذهب كل عام من بيت مال (نيسابور) .. وأنت يا (صباح) ؟ »

فكّر (الحسن) قليلاً ، ولم يكن راغبًا فى مزيد من التظاهر ما دام قلب صديقه القديم مفتوحًا هكذا :

ـ « أريد أن أنشغل بأمور الدنيا ! »

ـ « مفهوم .. مفهوم .. هذا عهدى بك ! »

ـ « أريد مكانًا ساميًا فى قصرك .. »

فكّر (نظام الدين) قليلاً .. كفّ عن المضغ وحك لحيته ، ثم قال :

ـ « هناك إمارتان تناسبانك .. إمارة (همذان) أو إمارة (الرىّ) .. فأية واحدة تريد ؟ »

ـ « أريد أن أكون هنا فى القصر معك .. »

ـ « لك هذا .. »

كانت هذه هى طريقة الحكام فى تقديم الهبات لمن يرضون عنه .. وكان فى كرمه الكفاية لأن (عمر الخيام) ظلّ يتقاضى راتبه السنوى حتى ٤٨٥ هجرية ..

أى أنه عاش سبهللاً عشرين عامًا كاملاً .. و (سبهللاً) بالمناسبة لفظة فصحى لا غبار عليها بمعنى (لا لدنيا ولا آخرة) ..

عاد (عمر الخيام) إلى (نيسابور) ليواصل اكتئابه ، ويتقاضى ١٢٠٠ مثقال ذهب فى العام .. بينما بقى (الصباح) فى (أصفهان) يلعب الشطرنج ..

* * *

ـ « شطرنج ؟ »

قالتها (عبير) غير مصدقة ، حين أخبرها (عمر الخيام) بالقصة كلها ، وكانت عودته المفاجئة قد أثارت حيرتها .. لقد حسبته سيظل فى (أصفهان) أبدًا ..

قال لها (الخيام) :

ـ « نعم شطرنج .. لا عمل له هناك إلا هذا ، وهو يقضى الوقت مع ندماء السلطان يلعبون .. لا أعتقد أنه سيتحمل أدوارًا كثيرة قبل أن يجن جنونه ويبحث عن دور .. »

سألته وهى ترفع النقاب لتغطى وجهها :

ـ « ولماذا عدت أنت ؟ »

ـ « لأننى لا أعرف لنفسى خارج (نيسابور) بيتًا ولا عملاً ولا حبًا ولا قبرًا .. إن بقائى فى (أصفهان) يعنى أن أتحول إلى شاعر الوزير الأليف .. مجرد وسيلة تسلية مادام التلفزيون لم يُخترع بعد .. لقد اخترت لنفسى نهاية أفضل .. »

وشردت عيناه .. يا للكارثة ! ثمة رباعية فى الطريق ! وكما توقعت بالفعل نظر لأعلى وقال :

ـ « وليس هذا العيش خلدًا مقيمْ

فما اهتمامى محدث أم قديمْ ؟

سنترك الدنيا فما بالنا

نضيع منها لحظات النعيمْ ؟ »

ـ « على رأيك .. »

قالتها وتنهدت .. لابد أن هناك طريقة لإخراس الشعراء المتحمسين غير الديناميت .. إنها ـ للأسف ـ

لن تجد الديناميت فى هذا الزمن قبل أن يخترعه (ألفريد نوبل) .

قال لها (الخيّام) باسمًا على سبيل الزهو :

ـ « لقد وصلت شهرتى الطبية إلى (أصفهان) ، وقد عالجت ابن (ملك شاه) نفسه .. إنه ولىّ العهد (سنجر) وكان محمومًا ، وطلب الأب أن أفحص ابنه لأنه سمع عن شهرتى ونبوغى .. كان الصبى يعانى تسرب بعض (الأخلاط) الفاسدة إلى دمه وقد فصدته فتحسن .. »

كانت تعرف أن الطب فى هذا الزمن لا يزيد على الأخلاط والهواء الفاسد ، والعلاج الوحيد هو الفصد والكىّ واستنشاق الهواء النقىّ ..

من الغريب أنهم كانوا يشفون أحيانًا !

★ ★ ★

وكانت الأخبار من (أصفهان) تصل إلى (عمر الخيام) أولاً فأولاً .. طبعًا بعد شهر من حدوثها ..

عرف أن (الصباح) ـ كما هو متوقع ـ قد وطّد

سلطته فى البلاط، وصار له حلفاء عن طريق لعبة الشطرنج .. ثم تدريجيًا صار حاجب الملك ..

وفى يوم استدعى الملك وزيره (نظام الدين)، وطلب منه أن يجرى جردًا لميزانية الدولة ..

- «كم تحتاج إليه من الوقت؟»

حك (نظام الدين) لحيته الوقور فى تؤدة وقال :

- «عامان على الأرجح يا مولاى ..»

هنا تدخل (الصباح) فى الكلام ضاربًا بيده على صدره :

- «أنا أفعلها فى أربعين يومًا يا مولاى !»

نظر له الملك فى إعجاب حذر، ثم هزّ رأسه :

- «برهن لى على ذلك .. والويل لك لو كنت مغاليًا ..»

* * *

ولم يكذب (الصباح) خبرًا ..

بعد أربعين يومًا كانت ميزانية الدولة - بالمليم - مدوّنة على رقاقة من جلد غزال بين يدىّ الملك .. يعلم اللَه (تعالى) وحده إن كانت صحيحة، لكن الملك كان مسرورًا جدًا، ونظر نظرة لائمة إلى (نظام الدين) .. نظرة من نوع (هل - ترى - أيها - المتخاذل - ؟) ..

وابتلع (نظام الدين) غيظه وصمت ..

لكن الحقيقة هى أن نفوذ صديق طفولته العزيز كان يقوى يومًا بعد يوم، وهو ما يشبه الناسك الذى سمح للأفعى بأن تبيت فى داره ..

لقد حان وقت الخلاص من صديق الصبا العزيز هذا، وكلما كان هذا أسرع كان أفضل ..

وهكذا دارت لعبة حاشية السلطان التقليدية : المؤامرات - الوشاية - الدسّ - نقل ما لم يحدث لمن لم ير .. إلخ ..

ووجد (الصباح) أن (أصفهان) صارت مكانًا خطرًا،

وأن طموحاته تحتاج إلى مكان أوسع وأكثر رحابة .. إلى مصر ..

★ ★ ★

وفى العام ٤٧١ هجرية فرَ (الصباح) إلى مصر ..

كان (المستنصر بالله) يحكم مصر ، وقد سمع الكثير عن (الصباح) ، فاستضافه وأكرم وفادته ، وقام بتقديمه إلى الإسماعيليين فى القاهرة .. وهم من نفس طائفته وميوله ..

لكن ـ كما قلنا ـ كان (الصبَاح) يضمّ داخله ما هو أقرب إلى ياى السيارة .. الياى الذى يحاول أن يتمدد فى أية لحظة مهما ضغطت عليه طويلاً .. الياى الذى يحاول التوسع وتحقيق الطموح بأى ثمن ..

وكانت فرصته فى مصر واضحة وسهلة ..

كان للخليفة ابنان هما (نزار) و (المستعصم) .. وكان له وزير قوى كاسح السلطان والشخصية هو (بدر الجمالى) .. الوزير يؤيد (المستعصم) كى تكون له الخلافة .. والخليفة يؤيد (نزار) ..

هنا قرر (الصباح) أن يراهن على (نزار) الابن الثانى للخليفة .. ليسجل لدى الخليفة نقطة ..

لكنه أخطأ تقدير قوة منافسه الوزير ..

كان الوزير قويًا بحق ، ربما أقوى من الخليفة نفسه ، وكانت غضبته عاتية لا تبقى ولا تذر ..

لهذا اعتقل (الصباح) وسجنه فى (دمياط) ، ليبقيه بعيدًا عن الصراعات على الخلافة ..

إن (الصباح) مثير شغب ومتاعب حيثما وجد ، وطبيعته التآمرية ليست مما يناسب الوزير ، لأنه يملك الطبائع ذاتها ، وقلما شعر ذئبان براحة فى مكان واحد إذا تصادمت مصالحهما ..

★ ★ ★

ولم يبق (الصباح) كثيرًا فى (دمياط) ..

لقد لحق بمركب متجهة إلى الشام .. فرّ من مصر تاركًا المزيد من المشاكل وراءه ، قاصدًا وطنه لينشر المزيد والمزيد من المشاكل هناك ..

وقال (عمر الخيام) لـ (عبير) / (شورانكيز) وهو يرتجف :

ـ « إن (الصباح) لا ينسى أحقاده القديمة .. وهو لن يسامح (نظام الدين) على طرده من (أصفهان) .. الويل لكل من وقف أو يقف أو سيقف فى طريق هذا الرجل المخيف .. »

★ ★ ★

٥ ـ النزارى الأول ..

فى هذا الوقت لم يكن (الخيام) بلا عمل ..

كان منهمكًا فى رباعياته ودراساته الطبية والفقهية والفلسفية .. كان بطبعه زاهدًا فى الناس والكون ، ميالاً إلى العزلة وإعمال الفكر ..

وعام ٤٧١ هـ ـ حين كان (الصباح) يبدأ مشاغباته فى مصر ـ كان منهمكًا فى إصلاح التقويم الجلالى بناء على أوامر (ملك شاه) .. بدأ هذا التقويم من ١٥ مارس سنة ١٠٧٩ م ، ولا يزال من أعياد الفرس حتى اليوم .. إنه (النيروز) بداية السنة الفارسية ، الذى حيّرنا فهم معناه حين درسنا قصيدة البحترى الشهيرة (أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكًا .. من الحسن حتى كاد أن يتكلما) ! إن من لم يتلق علقة من مدرس اللغة العربية بسبب (النيروز) لهو ـ فى رأيى ـ إنسان سعيد الحظ حقًا ..

كانت (عبير) قد يئست تمامًا من أن يطلب (الخيام) يدها .. واضح أنه لن يفعل هذا أبدًا ..

لكنها ـ من ناحية أخرى ـ لم تفقد صداقته ، فهو ذكى مهذب لطيف المعشر ، ولو تغاضينا عن رباعياته التى لا تنتهى ؛ يمكن القول إنه شخص لا بأس به ..

ولم تنقطع أخبار (الصباح) ..

★ ★ ★

لقد تولى (المستعصم) حكم مصر كما رتب له الوزير (الجمالى) ..

و (نزار) أخوه قد قتل ..

كانت هذه هى الفرصة السانحة لـ (الصبّاح) كى يتبنى قضية ما .. إنه بحاجة إلى النفوذ والسلطة ، لكن الناس لا يمنحان النفوذ والسلطة من دون قضية .. وقضية اليوم هى مصرع (نزار) ..

وفى الحال التقط (الصباح) الكرة ، ووجهها بتسديدة محكمة إلى قلوب الناس ..

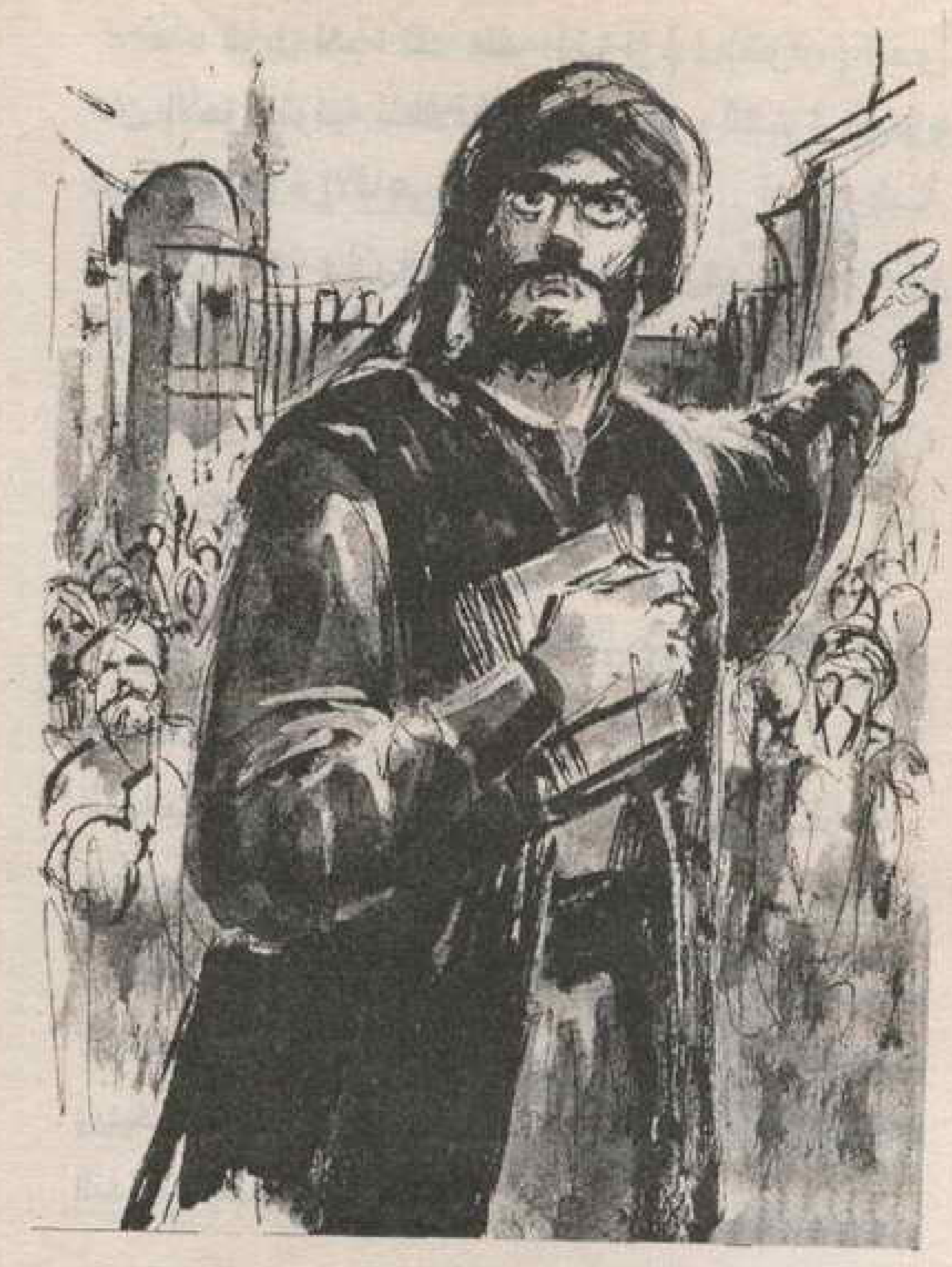
ـ « الويل لكم ! لقد هلك (نزار) ! (نزار) الذى كان الأحقّ بتوليه للخلافة فى مصر .. وأنتم تركتموه يموت يا إخوة الأفاعى وأبناء الشياطين .. إن الأرض لتشمئز منكم ، وإن الطيور الجارحة لتزورّ عنكم ، وإن قلبى ليرتجف هلعًا من حقارتكم .. »

لم يكن يبالى كثيرًا بـ (نزار) ولا من يحكم مصر ، لكنه ـ كما قلنا ـ كان يبحث عن قضية .. يبحث عن فتنة .. يبحث عن جنازة يشبع فيها لطمًا وعويلاً ..

ـ « ويْحكم ! ليست هذه أول ولا آخر مرة تضيعون فيها إمامًا ، ولا أول ولا آخر مرة تلقون فيها الخبز للكلاب ، والجواهر للأوحال ، والتبر للتراب .. يا مجموعة من الحمقى تخجل منها الكلاب فى شوارع (خراسان) .. وغدًا تبكون بدل الدموع دمًا .. »

الحق أنه كان رهيبًا مهيبًا ، وهو يقطع الدروب ويدخل المدن ، بثيابه السوداء الكابية ، والنظرة النفاذة الغضبى فى عينيه ..

كان تأثيره مغناطيسيًّا ، وهو تجسيد حقيقى لكلمة



الحق أنه كان رهيبًا ، وهو يقطع الدروب ويدخل المدن ، بثيابه السوداء الكابية ، والنظرة النفاذة الغضبى فى عينيه ..

(كاريزما) ، أو مصطلح (ديماجوج) الذى يحبه السياسيون ، أو لفظة (أومف) التى يستعملها السينمائيون فى (هوليوود) ..

وببطء ـ وكما يحتشد دخان مصباح (علاء الدين) فى صورة مارد ـ بدأت رسالته تتشكل ، وأتباعه يتزايدون ..

وفيما بعد سيطلق التاريخ على هذه الدعوة اسم (النزارية) .. لأنها لاتتكلم إلا عن (نزار) ابن (المستنصر) القتيل ، الذى اعتبره (الصباح) شهيدًا ..

* * *

لابد أنه احتاج إلى طاقة هائلة كى يبث دعوته فى أرجاء (كرمان) و (طبرستان) ..

ثم اتجه إلى شمال إيران حيث (قوهستان) ، وصعد ـ وهو لايكف عن الوعيد والتهديد ـ إلى مايسمونه (قلعة الموت) .. أو (شاه دز) .. وهى قلعة حجرية قرب (خراسان) ..

وجد مغارة هناك ، فدخلها ، وقبع فيها يدعو الناس إلى الالتفاف حوله ، ومبايعة (نزار) خليفة ..

لكن (نزار) مات فكيف ؟ إن (الصباح) هو نائب الإمام القتيل ، ويتكلم بلسانه .. وبما أن الإمام ـ فى رأيه ـ معصوم فنائبه معصوم .. كل ما يقوله (الصباح) صحيح ، وكل شيء يعرفه ، وكل سرّ ينفذ إلى خفاياه ..

شعر حاكم المنطقة بالقلق ، فهذا الثرثار يحدث الكثير من الصخب وهو مصدر متاعب لاينتهى ..

سأله رجاله :

ـ « ماذا نفعل مع هذه المصيبة التى جاءت من (نيسابور) ؟ »

فكر الرجال قليلاً ، ثم قالوا له :

ـ « اعرض عليه أن يترك الغار الذى يقيم به .. سنحاول أن نمنحه حياة أسهل مقابل أن يكف عن الضجيج قليلاً .. »

وفى اليوم التالى ذهب الحاكم إلى الغار ، ونادى (الصباح) فخرج له ..

كان مخيفًا بحق وقد بدأ النفوذ ووساوس الفكرة الواحدة ترسم على وجهه تعبيرًا غير آدمى ..

سأله الحاكم طيب القلب :

ـ « ألن تفكر فى ترك هذا الغار ؟ »

ـ « نعم .. لا أفكر .. »

ـ « لكن هذا ممنوع .. أنت على مرمى حجر من قلعة الموت ، وهى قلعة ذات أهمية حربية بالغة لنا .. »

حكّ (الصباح) لحيته ، وقال بعد تفكير :

ـ « أنا بحاجة إلى البقاء هنا .. لماذا لاتبيعنى مقدار سلخ بقرة من أرض القلعة كى أعيش عليها ؟ هذا لن يزعج أحدًا كما تعلم .. »

فكر الحاكم طيب القلب ، وخطر له أن وجود (الصباح) داخل القلعة قد يجعله محاصرًا بشكل ما .. ربما يضعه هذا تحت الرقابة ..

ـ « ليكن .. سـأبيع .. ولكن مقـدار سلخ بقـرة لا أكثر .. »

ـ « لك هذا .. »

وطارت حزمة مصرورة من الدراهم لتسقط فى يد الحاكم ، الذى انصرف راضيًا عن ذكائه .. لقد حاصر (الصباح) بين أربعة جدران بدلاً من تركه فى مكان مفتوح على الجماهير ، ولم يـؤذه قـط .. إن إيـذاء (الصباح) قد صار خطرًا هذه الأيام ..

★ ★ ★

وبعد أسبوع بدأ الحاكم يقلق نوعًا ..

كانت وجوه المحيطين بـه تنم عن توتـر حقيقى ، وراحوا يتحاشون أن تلتقى عيونهم بعينيه .. فماذا حدث ؟

قرر أن يرى بنفسه ..

اصطحب عددًا من فرسانه ، ومضى عبر الجبال

قاصدًا قلعة الموت التى باع من أرضها مقدار سلخ بقرة للصباح ..

هناك كان الصمت غالبًا ، والجو لا ينذر بخير ..

ترجّل أحد الفرسان عن فرسه ، ومشى إلى باب القلعة وقرعه مرارًا .. جاءه من أعلى صوت يقول فى حزم :

ـ « كلمة السرّ ؟ »

تبادل الفارس نظرة حيرى مع رجال الحاكم الراكبين الواقفين خلفه ، ثم صاح :

ـ « هل تمزح ؟ لا كلمات سرّ هنا .. »

كان حظهم حسنًا على كل حال لأن كلمة السرّ لهذا اليوم كانت (لا كلمات سرّ هنا) ، وهكذا انفتح الباب وسمح لهم بالدخول ..

سمح لهم بالدخول خمسة أمتار لأن الحراس شاكى السلاح سدّوا عليهم الطريق .. وفى عيونهم التمعت نظرات من طراز (الويل لمن يتوغل أكثر) ..

صاح الفارس الذى قال كلمة السر :

ـ « ويحكم ! هل ترون من معنا ؟ إنه الحاكم نفسه .. (على بن المهدى) شخصيًا .. »

ـ « إن (الصباح) يبتلع منه عشرة قبل الإفطار ! »

ساد الهرج والمرج ، وتبادل الواقفون السباب والاتهامات ، وهنا شق الصفوف رجل مهيب فارع الطول متشح بالسواد ، له عينان جاءتا من حيث جاءت عينا (راسبوتين) والكونت (دراكيولا) ..

قال بصوت جهورى :

ـ « أيها الحاكم .. دع رجالك يرحلون حالاً .. »

صاح (ابن المهدى) القصير المكتنز :

ـ « ماذا تعنيه يا (حسن) ؟ هؤلاء رجالى .. خيرة رجالى .. حامية القلعة تلك التى تحيط بك .. »

ـ « إنهم رجالى الآن ، وأنت شخص غير مرغوب فيه هنا .. »

ـ « فـ .. فى قلعتى ؟ »

ـ « بل هى قلعتى أنا ! لقد بعتنى إياها منذ أسبوع .. هل تذكر هذا »

وابتسم (الصباح) فى رفق كأنه يكلَم طفلاً شقيًا ..

صاح الحاكم غير مصدق ، وكل ذرة فى جسده ترتجف :

ـ « بعتك مقدار سلخ بقرة أيها النصاب !! »

ـ « إن ذاكرتك ضعيفة .. لقد بعتنى إياها بالكامل .. ولو كنت لا تصدق كلماتى فإن رجالى يذكرون كل شىء .. »

نظر الحاكم إلى من حوله غير مصدق . كل هذا الإنجاز فى أسبوع واحد ؟ وضع الرجل يده على القلعة كلها ، ووضع رجالها ـ الحرس الأشداء ـ فى جيبه ليصيروا حراسه الشخصيين ..

ـ « لكنها قلعتى أنا يا (حسن) .. »

ـ « بل هى قلعتى أنا يا (على) .. أظن أنك تعانى مشكلة فى السمع أيضًا .. حسبت أننى قلت هذا بصوت عال .. »

ثم تراجع إلى الوراء لتلتئم صفوف رجاله شاكى السلاح فى وجه الحاكم ومن معه ، وقال بنفس الهدوء :

ـ « إننى أحملك مسئولية أى صدام يحدث هنا .. هؤلاء رجالى وهم حسنو التدريب كما تعلم جيدًا .. إن اللحظات القادمة تعنى مذبحة ، ما لم ترحلوا فى سلام .. »

واختفى عن العيون ..

★ ★ ★

٦ ـ (الصبّاح) يتكلّم (*) ..

وعند الحاكم احتشد القوم يتبادلون الاتهامات والشكوى :

ـ « كان هذا خطأنا ! »

ـ « إنه التخاذل .. »

ـ « ثعبان وثعلب معًا ! »

ـ « يجب أن نعامله بحسم ! »

ـ « كفى ى ى ى ! »

هذه الأخيرة كانت من (ابن المهدى) الذى أوشك على أن يختنق من فرط الزحام حوله ، وكان العرق قد بدأ يبلل ثيابه ويعمى عينيه .. قال أخيرًا وهو يلهث :

ـ « لا أريد سماع حرف عن هذا الـ (حسن بن

(*) يعتمد هذا الفصل بشدة على كتاب (مذاهب غريبة) للأستاذ (كامل زهيرى) ، كتب للجميع (١٢٩) ، ١٩٥٨

الصباح) .. لقد أغلق باب المناقشة فى هذا الموضـوع .. دعوه وشأنه ! »

ـ « ولكن هيبة الحاكم ... »

ـ « لا أريد سماع حرف عن هيبة الحاكم .. »

وجفف العرق الذى سال على عنقه المكتنز ، وقال :

ـ « على المتحمسين منكم أن يذهبوا إلى قلعة الموت لإقناعه ! »

★ ★ ★

وهكذا أخـذ (الصبـاح) القلعـة بوضـع اليـد كمـا يقولون ، وكما يقولون أيضًا : بقى الوضع على ما هو عليه ..

وبدأت الأمـواج تجـرى تحـت الجسـور بسـرعة لايمكن وصفها .. لقد كان المـارد يحتشد معلنـًا بدء حركة من أخطر الحركات فى تاريخ الشرق ..

★ ★ ★

ـ « لاتختاروا الذكى أو الغبى .. بل اختاروا الوسـط بين الاثنين .. »

★ ★ ★

ـ « لاتلقوا البذور فى الأرض السبخة ، ولاتتورطـوا مع الأغبياء الذين لايصلحون .. »

★ ★ ★

ـ « لاتتكلموا فى بيت به سراج .. »

(الحسن بن الصبّاح)

★ ★ ★

كانت تعليماته لأتباعه تتسرب كالثعابين من شقوق نظام الدولة الإيرانية المحكم ، وكان محقًا فى أمرهم بعدم الكلام فى بيت به سراج .. هذا شىء مفهوم طبعًا .. إن ذكاء هذا الرجل ...

ماذا ؟ هناك بينكم من لايفهم معنى (بيت به سراج) ؟ هذا غريب .. إن الأمر واضح تمامًا .. البيت الذى به سراج مضىء ليلاً هو بيت تحت سقفه عالم

أو فقيه أو باحث ، وما كان (الصباح) يريد مثل هؤلاء لأنهم متعبون يرهقونه بالجدل .. كان بحاجة إلى العامة الجهلاء الذين يقبلون الأمور على علاتها ، ويقولون ما يُقال ، ويرون ما يوصف لهم ..

وتدريجيًا بدأت دعوة (الصبّاح) تتخذ طابع ادعاء نبوة كاملاً ، وأحيانًا كانت تدخل ـ والعياذ بالله ـ فى ادعاء الألوهية .. ومن الغريب أنه كان يجد من يصدقه .. يصدقه بإخلاص ..

إن الحمقى موجودن فى كل زمان ومكان ، ولولاهم ـ كما يقول (مارك توين) ـ ما حقق غَير الحمقى أى نجاح ..

* * *

نحن الآن فى العام ٤٨٠ هجرية ، ودعوة النزاريين تتشعب كالسرطان فى كل مكان من البلاد .. ترسل خلاياها الخبيثة إلى كل صوب ..

والورم الأصلى قابع هناك فى قلعة الموت .. إن قلعة الموت حصن حصين بحقّ يصعب اقتحامه ، وقد

كان (الصبّاح) من العسكريين الذين يؤمنون باستراتيجية المرتفعات .. فقط المرتفعات هى التى تسمح لقاطنيها بالسيطرة على ما حولهم ، ورؤية الخطر الدانى ..

والآن يمكننا أن نرى (الصبّاح) جالسًا على الأرض فى قلعته الرهيبة ، محاطًا بالمشاعل ، يتكلم بصوت وقور رنان لأتباعه الذين يشربون كلامه شربًا ..

يقول لهم عن مراحل استقطاب أفراد الجماعة :

إن استقطاب واحد جديد لينضم لنا هو عملية معقدة ، يمكن أن ندرجها فى الخطوات التالية :

ـ « الخطوة الأولى : التفرس .. »

* * *

راح (زيد) يتأمل جاره (وحدت) فى اهتمام .. إن (وحدت) من الأشخاص طيبى القلب الميالين للخنوع .. بعبارة أخرى هو بحاجة دائمة إلى من يأمره ويقوده ..

لاحظ هذا ، وخطر له أن الرجل صالح بالفعل كى

ينضم إلى (النزارية) ، لكن الأمور لا تتم بهذه السهولة وهذا اليسر ..

* * *

يقول (الصبّاح) :

ـ « الخطوة الثانية هى التأنيس .. »

* * *

وفى تلك الليلة دعا (زيد) نفسه إلى بيت (وحدت) .. كان يحمل معه بطيخة أذاب فى قلبها بعض الريحان ، ومعها (حلّى سنونك) من (أصفهان) ، وهى حلوى لم يقاومها أحد منذ عرف الإنسان الحلوى ..

وجلس فى دار جاره يؤنسه ، ويسليه ، ويحكى له الغرائب والطرائف .. وكان (وحدت) الذى امتلأ بطنه بالبطيخ والحلوى فى حالة من التسامح والرضا جعلته يفصح عن كل ما يخفيه حتى عن نفسه ..

وتدريجيًا بدأ الكلام عن ظلم الحكام وبطء العدل ، والفساد المستشرى فى أرجاء (إيران) ..

* * *

يقول (الصبّاح) :

ـ « الخطوة الثالثة هى التشكيك .. »

* * *

ففى الأيام التالية راح (زيد) يبلبل فكر (وحدت) ، ويزعزع كل الأفكار الراسخة عنده .. وكل هذا بدعوى الإصلاح .. والإصلاح كلمة يقبلها كل الناس ، ولا تسبب الذعر أو النفور ..

* * *

يقول (الصبّاح) :

ـ « الخطوة الرابعة هى التعليق .. »

* * *

لأيام عديدة لم يعد (زيد) يزور (وحدت) فى داره ..

شعر (وحدت) بقلق بالغ ، وهو الذى انقطعت حبال سلامه النفسى والفكرى .. كان بحاجة إلى من يُعنى به ..

لكن صديقه وجاره توارى تمامًا بعيدًا عنه ، وبدت

الأيام ثقيلة الوطء .. لقد اعتاد أفكار هذا الأخير ، ووجد فيها إجابة جاهزة لكل سؤال يعنّ له .. أما الآن ..

★ ★ ★

يقول (الصبّاح) :

- « الخطوة الخامسة هى الربط .. »

★ ★ ★

وعلى ضوء السراج فى الليل ؛ أخذ (زيد) العهد من (وحدت) ، وجعله يقسم على أن يكون مطيعًا للجماعة ، مخلصًا لتعليماتها ..

★ ★ ★

يقول (الصبّاح) :

- « الخطوة السادسة هى التدليس .. »

★ ★ ★

وعبر أحاديث متصلة ؛ أقنع (زيد) (وحدت) بأن (النزارية) هى الدعوة الحق ، وأن كل واحد فى إيران

يؤمن بها ، لكنه يخشى أن يجاهر بذلك .. لكن هذه لم تكن الخطوة الأخيرة ..

★ ★ ★

يقول (الصبّاح) :

- « الخطوة السابعة هى التأسيس .. »

★ ★ ★

وهكذا أعلن (وحدت) أنه صار نزاريًا يطيع كل ما يطلبه منه (الحسن بن الصبّاح) ، ويصدقه فى كل شىء ، ومستعد للموت من أجله ..

وكانت هذه الخطوة الأخيرة ..

★ ★ ★

وفى تلك الليلة الرهيبة ، اصطحبه (زيد) إلى قلعة الموت ..

كان (وحدت) قد ارتدى الثياب السوداء ، وراح يرتجف كورقة من رأسه إلى أخمص قدميه .. إن منظر الحراس الأشداء ، والمشاعل والسيوف اللامعة فى ضوء النيران ، لم يكن مما يناسبه حتمًا ..



وعلى ركبتيه زحف على البساط نحو (الصبّاح) الجالس يكتب شيئا .. انحنى عدة مرات وعجز عن قول شىء ..

وعلى ركبتيه زحف على البساط نحو (الصبّاح) الجالس يكتب شيئًا .. انحنى عدة مرات وعجز عن قول شىء ..

رفع (الصبّاح) عينيه الناريتين إلى (زيد) ، فقال هذا راجفًا :

ـ « خادمك (وحدت) جاء يطلب الأمان ، وأن يعرف مكانه .. »

تأمل (الصباح) تابعه الجديد فى اهتمام ، وقال :

ـ « إن له جسد ثور ، وعضلات أسد .. ليكن من (الفداوية) .. »

هلل الواقفون استحسانًا ، واقتادوا الرجل المذعور ليلبس ثياب الفداوية ، ويتعلم ما يتعلمه الفداوية ..

إن الفداوية هم المرتبة الخامسة من النظام المعقد الذى ابتكره (الصبّاح) ، والذى يتكون من سبع مراحل : سيدنا ـ فى المرتبة العليا طبعًا ـ ثم كبار الدعاة فالدعاة .. بعدهم الرفاق فالفداوية فاللاصقون فالعاديون ..

الفداوية هم الفدائيون .. أى الجناح العسكرى لهذا النظام .. إنهم هم المكلفون بعمليات القتل والذبح والخنق ، وكان كل منهم يحمل قبل العملية شهادة ملكية لقصر فى الجنة ، عليه توقيع (الصبّاح) !!

الفداوية هم أشهر أعضاء الحركة النزارية .. وبما أنها حركة غير سلمية ، قائمة أساسًا على العنف ، فقد كانوا أهم أعضائها كذلك ، وكانت لهم معاملة خاصة جدًّا ..

★ ★ ★

القنّب الهندى نبات آت من الهند .. طبعًا .. وإلا لماذا نعت بالهندى ؟

كان فى ذلك الوقت من عجائب الزمان ، وربما كان من يعرفونه لا يتجاوزون أصابع اليد ، وكان (الحسن) ذا خبرة كيميائية لا بأس بها ، وقد عرف هذا النبات الغريب وعرف خواصه ..

إن القنب الهندى هو ما سماه العلماء بعد ذلك Cannabis Sativa ، ومنه خرج ما نعرفه بالحشيش و (الماريجوانا) و (البانجو) ..

لكن القنب فى ذلك العصر كان سرًّا شبه حربى ، وكانوا يتعاطونه سرًّا كما يحدث اليوم وإن اختلفت الأسباب .. أيامها كانوا يخشون على هذا السرّ الخطير من الانتشار ، واليوم يخشون المخبرين و (الكبسات) وقضايا التعاطى ..

استخدم (الحسن) الحشيش على نطاق واسع وبجرعات عالية جدًّا ، فكان يجعل أتباعه فى شبه غيبوبة دائمة .. غيبوبة يصدقون فيها كل ما يقال ويلمسونه ويعيشونه ..

لقد وصف الرحالة الإيطالى (ماركو باولو) هذه الطقوس بالتفصيل ، كما وصف قلعة السفاحين ..

ولقد كان الفداوية ينفذون عملياتهم - القتل دائمًا وفى كل الظروف - وهم فى شبه غيبوبة من فرط تدخين الحشيش ..

لهذا اشتهروا فى التاريخ باسم (الحشاشين) ..

يجب ألا تختلط علينا المسميات إذن .. إن الفداوية هم الجناح العسكرى للنزارية .. والحشاشون هم الفداوية بعدما يذهب الحشيش بعقولهم ..

ارتبط الحشاشون بالقتل والاغتيال فى ذهن الغربيين - بفضل كتابات (مارك بولو) - حتى إن لفظة (حشاشيين) توجد كما هى فى أكثر اللغات الغربية Assassin ولكن معناها هو (سفاح) ..

يمكننا الآن أن نتخيل ما حدث للأخ (وحدت) حين اقتادوه ليكون من الفداوية .. لابد أنهم أعطوه خنجرًا ، وجعلوه يدخن الحشيش حتى صار مؤهلاً ليصيح (يا مساء الجمال) أو ما يعادلها بالفارسية القديمة ؛ ثم أمروه أن يذهب ليقتل ..

يقتل من ؟

(نظام الدين) طبعًا .. من سواه ؟

★ ★ ★

٧ - حمامات الدم ..

لايحتاج الأمر إلى حاسب آلى كى نعرف أن (الصبّاح) لابد أن يقتل صديق صباه (نظام الدين) ..

★ ★ ★

- « إن (الصبّاح) لاينسى أحقاده القديمة ، وهو لن يسامح (نظام الدين) على طرده من (أصفهان) .. »

★ ★ ★

وكما أمروه ، اتجه (وحدت) ، والخنجر مختف بين طيات ثيابه ، إلى (أصفهان) ، وكان معه كذلك عقد ملكية لقصر فى الجنة كتبه له (الحسن) نفسه .. إن الرجل كريم حقًا وقد اختار للفداوى قصرًا من زمرد ..

كان (نظام الدين) - الذى ازداد كهولة وبدانة وهيبة - واقفًا وسط مجموعة من عامليه ، يصدر تعليماته لهم ..

وكما يحدث فى كل الاغتيالات فى التاريخ ، دنا منه (وحدت) متظاهرًا بأنه يريد تقديم عريضة تظلُّم ..

نظر له (نظام الدين) ورسم على وجهه ابتسامة سياسية متسامحة ، ودعاه للاقتراب أكثر ..

و .. هوب ! انغرس الخنجر حتّى مقبضه فى عنق (نظام الدين) ، الذى لم يجد الوقت الكافى لينزع الابتسامة عن وجهه ..

وكما يحدث فى كل الاغتيالات فى التاريخ ، انقض الناس على القاتل وكالوا له اللكمات والركلات ..

الغريب أنه كان باشّ الوجه مبتسمًا ، ولم يظهر عليه لحظة ما يدلّ على ذرة ألم .. قال المعاصرون إن هذا عناد وتحدّ شديدان ، بينما يمكن لأى خبير سموم حديث أن يتبين معالم إدمان المخدرات .. هذا هو التأثير الانفصالى للمخدر الذى يجعل المتعاطى يتلقى الضربات كأنها على جسد واحد آخر ..

فى النهاية لم يبق من (وحدت) شىء يصلح للاستجواب ، فقد حولوه إلى عجين ..

وفى جيبه وجدوا العقد إياه وعليه توقيع (الصبّاح) .. وهى سمة سيجدونها عند كل فداوى يتمكنون من القبض عليه أو قتله ..

* * *

سمعت (عبير) خبر اغتيال (نظام الدين) من (الخيام) ، فارتجفت وسالت دمعة حزن على خدّها ..

تذكرت (نظام الدين) كما رأته آخر مرة : قويًّا وسيمًا واثق الخطوة يمشى ملكًا على رأى (إبراهيم ناجى) .. هذا الفتى الطموح الذكى يرقد الآن وقد انتفخت بطنه بغاز كبريتيد الهيدروجين ، وعما قريب يولم الدود وليمة هائلة على بقاياه ..

قال لها (الخيام) وهو يكفكف دمعة :

- « طوت يد الأقدار سفر الشباب
وطوحت تلك الغصون الرطاب
وقد شدا طير الصبا واختفى
متى أتى ؟ يالهفا .. أين غاب ؟ »

وصمت وراح ينهنه ..

سألته فى دهشة :

ـ « هل هذا كل شىء ؟ »

ـ « إنها رباعية كما تعلمين .. لم أجرّب كتابة الثمانيّات بعد .. »

سألته فى قلق وهى تدير قدح شراب الرمان بين كفيها :

ـ « هل أنت واثق من أن (الصبّاح) لا يحمل لك ضغينة ما ؟ »

قال فى ثقة وهو يمشط لحيته :

ـ « أنا لا أشكل خطرًا على طموحه .. أنا مجرد شاعر متأمل عاشق ، أما (نظام الدين) فكان رجل سياسة ، وكانت لدى (الصبّاح) كل الأسباب كى يقتله .. »

ـ « أرجو أن تكون متأكدًا من هذا .. »

★ ★ ★

وكانت الدماء قد عمت (إيران) ..

إن (خراسان) الهادئة ، و (نيسابور) الجميلة ، و (أصفهان) الناعسة ، كلها قد صحت لتجد الدماء عند الركبتين ..

اغتيالات .. اغتيالات .. اغتيالات ..

اغتيالات للقضاة .. للوزراء .. اغتيالات لمن قاوموا الاغتيالات ..

اغتيالات لمن اغتالوا مدبرى الاغتيالات ..

هذا زمن رهيب .. زمن ـ بحق ـ كان الرجل إذا تأخر فيه عن بيته إلى العصر ، صار بوسع أهل بيته إقامة العزاء ، ونادرًا ما كان ظنهم يخيب ..

لقد بذل (الحسن بن الصباح) كل ما بوسعه كى يحيل بلاده الجميلة إلى بركة دماء ، وقد نجح فى هذا إلى حدّ كبير ..

المشكلة هى أن الفداوية كانوا يختلفون عن أى سفاحين آخرين .. كانوا أقوياء لكن هذه ليست

مشكلة .. كانوا متعصبين لكن هذا سهل .. شباب (هتلر) النازى كانوا أكثر منهم تعصبًا ، وكانوا يمزقون معارضيهم أحياء ويلقون بهم فى نهر (الراين) البائس ..

لكن الفداوية كانوا ـ على قدر علمى ـ أول سفاحين فى التاريخ يمارسون عملهم تحت سيطرة كيميائية تفقدهم إرادتهم .. هذه أشياء تراها فى السينما فقط ؛ منذ (عيادة الدكتور كاليجارى) حيث القاتل تحت تأثير التنويم المغناطيسى ، حتى (رجل الأطراف الكهربية) حيث القاتل تحت سيطرة إلكترونية مزروعة فى عقله .. لكن الفداوية كانوا كابوسًا حقيقيًّا ، لا يرحم ولا يتهادن ولا يتكاسل ، وأكثرهم كان ينتحر قبل اعتقاله ..

وما فائدة ذلك ؟ إن استجوابه معروف النتيجة على كل حال .. كل واحد فى (إيران) يعرف أن هؤلاء مرسلون من (الحسن بن الصبّاح) ، ومن قلعة الموت فى (خراسان) بالذات ..

لكن من يجرؤ على عمل شىء ؟

★ ★ ★

مات السلطان (ملكشاه) بعد شهر من وفاة وزيره ..

كلا لم يُطعن .. لكنه فى الغالب مات مسمومًا .. لا بد أن أحد الطهاة كان من الفداوية ..

تولى ابنه (سنجر) ـ الذى عالجه (عمر الخيام) يومًا ـ فى أسوأ ظروف يمكن لحاكم أن يتولى فيها ..

والحقيقة أن حياته كانت كابوسًا متصلاً ..

لقد كتب له (الصبّاح) رسالة رقيقة يقول فيها :

ـ « كل من فى خدمتك هو طوع إشارة منى ! »

وهى ـ للأسف ـ حقيقة لا يمكن إنكارها ..

وكدليل على كلامه ، صحا (سنجر) من نومه ذات يوم ، ليجد خنجرًا مغروسًا على الوسادة جوار رأسه ..

والمعنى واضح بالطبع .. لم يمنعه من قتل (سنجر)

سوى أنه لم يكن رائق المزاج وقتها ، أو لأن وقته لا يسمح بهذه التفاهات ..

* * *

كان (الخيام) يزداد كآبة وانعزالاً ومقتًا للوجود ، وما انفك يردد هذه الرباعية بالذات :

ـ « إن الذى تأنس فيه الوفاءْ

لا يحفظ الودّ وعهد الإخاءْ

فعاشر الناس على ريبة

منهم ، ولا تكثر من الأصدقاءْ »

وحاولت (عبير) أن تجعله يسترد ثقته بالناس ، لكن قلب الشاعر كان قد انغلق دون الوجود كله ، والمصيبة هى أن معاشه السنوى الذى حسدناه عليه كثيرًا قد انقطع بوفاة الوزير .. هذا يدل على أن قلوبنا ليست بهذا الصفاء الذى كنا نحسبه فيها ..

لكن لم يكن هذا كل شىء ..

كان فى الغيب ما هو أقسى وأغرب ..

* * *

٨ ـ وقائع موت شاعر ..

لو أن تحقيقًا معاصرًا أجرى فى جريمة اغتيال (الخيام)(*) ، لكانت شهادة (عبير) الباكية كما يلى :

س ـ اسمك وسنك وعنوانك ؟

ج ـ (شورانكيز) .. ٣٠ سنة .. جارية (ناظم الزورى) التاجر فى (نيسابور) ..

س ـ ماذا تعرفين عن القتيل ؟

ج ـ (عمر الخيام) شاعر ومفكر وأديب وطبيب .. إنه شخصية من التى التى لا يجود القرن إلا باثنين أو ثلاث منها .. إنه صديق عزيز ..

س ـ ما معلوماتك عن الجريمة ؟

ج ـ كان هذا فى يوم (سيزده بدر) الذى يحتفل

(*) نحن فى (فانتازيا) ولسنا فى كتاب تاريخ .. لكن الدقة تقضى بأن نذكر القارئ أن (الخيام) لم يقتل ، لكنه مات ميتة طبيعية عام ٥١٧ هـ (١١٢٣ م) . عن ٨٤ عامًا ..

به الإيرانيون جميعًا .. كنت أعدّ طعام الغداء لسيدى التاجر ، حين مرّ عليه (عمر الخيام) ، ودعاه لأن يلعبا الشطرنج كما اعتادا ..

س ـ هل كانت هذه ذريعة يراك بها ؟

ج ـ أعتقد هذا .. كان بحاجة إلى أن يرانى كثيرًا فى الأيام الماضية لأن ثقته بالبشر قد انعدمت ، وكان ينشد طيلة الوقت :

« وأسعد الخلق الذى يُرزق

وبابه دون الورى مُغلقُ

لاسيد فيهم .. ولا خادم

لهم ، ولكن وادع مُطلقُ »

ولقد ظل الرجلان يلعبان الشطرنج لمدة ساعة .. كان (الخيّام) يتعمد أن يضيع الفرص وينقل نقلات خاطئة ، لأن هذا يسعد سيدى العجوز جدًّا ، وكان سيدى لايكفّ عن انتقاد غباء الشباب وقلة براعتهم ..

هنا سمعت طرقات على الباب ففتحته ..

كان القادم متسولاً يضع عصابة على عينه اليمنى ، وقد انحنى ظهره .. ناولته تفاحة كانت فى يدى ، وسألته أن يعود فى وقت آخر ، لكنه أصرّ على أن يدخل .. وصاح بصوت عال :

ـ أنت هنا يا (خيّام) ؟

فدهشت لأنه يعرف هذا .. صاح المتسول مردفًا :

ـ « أين أنت ؟ ولم لاتلبى نداء أخيك فى الإنسانية ؟ هكذا ديدن الشعراء .. يتكلمون ويتكلمون .. لكنهم لايمنحون نصف تمرة فاسدة لمتسول جائع .. ألم يأمر لك (نظام الدين) رحمه الله بألف ونيف كل عام ؟ »

هنا لم يتحمل (الخيام) أكثر ، فنهض من أمام رقعة الشطرنج ، ودنا من المتسول وهو يفتش فى جيبه عن قطعة من ذهب أو فضة .. وجد واحدة فناولها للرجل ، وقال :

ـ « خذ .. لكن اللّه (تعالى) يعلم أننى أحق منك بالتسوّل وأجدر .. لقد مات (نظام الدين) ، ومعه ماتت عيشة الرغد والرخاء .. »



اطلقت صيحتى لكنها متاخرة طبعًا ، لأن الرجل أولج خنجره حتى المقبض فى صدر (عمر) وأداره ..

قلت لـ (عمر الخيام) فى توتر :

ـ « كفى يا (عمر) ، وعد لمكانك .. »

كان هذا لأننى لاحظت نظرة غريبة فى عين المتسول الوحيدة المكشوفة .. لم أتبين فيها معنى مخيفًا .. بالأحرى لم أتبين فيها شيئًا على الإطلاق .. إنها تلك النظرة الخاوية المذهولة التى تميز من هم تحت تأثير مخدر .. هذا الرجل (حشّاش) ! بالتأكيد هذا ...

ـ « (عمر) ! احتر... »

أطلقت صيحتى لكنها كانت متأخرة طبعًا ، لأن الرجل أولج خنجره حتى المقبض فى صدر (عمر) وأداره ..

كنت أحمل دورقًا مليئًا بشراب الرمان ، فلم أنتظر حتى أصرخ وأولول ؛ وإنما هويت به على رأس القاتل ، فقال شيئًا ما .. ثم اهتزّ رأسه يمينًا ويسارًا وانزلق على الأرض ..

س ـ هل مات (الخيام) على الفور ؟

ج ـ لا .. ما كان لشاعر مثله أن يموت قبل أن يقول شيئًا تتذكره الأجيال .. لقد هرعت إليه ووسدت رأسه على ركبتى ..

أدركت من الوهلة الأولى أنه انتهى .. عكارة النهاية تبدت فى عينيه الصافيتين .. كنت أبكى فمسح الدمعة على خدى بيد مرتجفة باردة ، وقال شيئًا ما جعل لحيته تهتز ..

دنوت لأسمع أفضل فسمعته يقول :

« لا تحسبوا أنى أخاف الزمانْ

أو أرهب الموت إذا الموت حانْ

الموت حق .. لست أخشى الردى

وإنما أخشى فوات الأوانْ »

فيما بعد يمكن لدارسى الأدب أن يستخلصوا ما يريدون من هذه الأبيات العظيمة ، لكن بالنسبة لى كان هذا كلامًا فارغًا يضيع به آخر أنفاسه النادرة .. قلت له أن يصمت ، لكنه راح يردد :

ـ « عرفت أن (الصبّاح) سيفعلها .. عرفت أنه سيفعلها .. »

ـ « لكنك أكدت أنه لن يفعلها .. »

ـ « كنت أكذب عليك وعلى نفسى .. »

ثم أغمض عينيه ، وذهب إلى ذلك العالم الذى حيّره طيلة حياته ، وكتب عشرات الرباعيات يتساءل عن كنهه ..

س ـ وماذا عن القاتل ؟

ج ـ لقد أفاق وهرب .. أضعت معه وقتًا أكثر من اللازم للأسف ، وما كانت ضربتى بالقوة المرجوة ..

س ـ هل لديك أقوال أخرى ؟

ج ـ نعم .. إن (الصبّاح) هو القاتل بالتحريض طبعًا .. إنه قد قرر أن يتخلص من كل أصدقاء صباه ، ومن كل من عرفوه قبل أن يصير أقوى رجل فى (إيران) .. لم يكن لـ (عمر الخيام) ذنب سوى أنه (عرف أكثر مما ينبغى) كما يقول رجال العصابات .. وأعتقد أن دورى قادم لا محالة ، فقد عرفت هؤلاء القوم جيدًا ..

★ ★ ★

انتهى التحقيق ..

لكن ما لم تقله (عبير) هو أن القاتل لم يهرب ..

كانت أذكى من أن تتركه يهرب ..

* * *

٩ ـ هذا الجنون بعينه !

قال لها التاجر العجوز (ناظم الزورى) ، وهو يرتجف كله كجناحى العصفور الطنّان :

ـ « أنت ستجلبين لنا الجحيم ها هنا .. »

قالت فى قسوة وهى تعدّ الشموع :

ـ « لن أسلمه لرجال الشرطة ، لأنهم سيتركونه ينتحر عند أول فرصة .. »

ازداد رجفة ، وتعالى صوت اصطدام ما بقى من أسنانه :

ـ « لم أتحدث عن الشرطة .. أتحدث عن تركه يذهب ! »

قالت فى غيظ ، وهى تعدّ الخناجر :

ـ « من الغريب أن الدانى من القبر مثلك ، هو أكثر الناس تشبثًا بسنوات من عذاب الشيخوخة وآلام العظام .. »

ـ « هذا طبيعى .. لم يبق من الحياة ما يكفى للتخلى عنه بسهولة .. إن آخر الطعام أطيبه مذاقًا .. »

وصمتَ مرغمًا .. برغم أنه سيدها وهى جاريته ؛ فإن شخصيتها كانت هى الأقوى والأكثر تأثيرًا ، وشخصيته كانت الأوهى كأنما ضعفت مع جسده .. وهو ما يحدث كثيرًا لدى المرضى الشيوخ الذين تعنى بهم ممرضة أو خادمة شابة .. إنها تصير سيدة الدار بعد قليل ..

★ ★ ★

وفى القبو ربطت القاتل من ساقيه ، ثم علقت الحبل من خطاف فى السقف كانوا يعلقون عليه لحم الخراف .. وألقت بجسدها على الحبل حتى تمكنت من رفع رأس الرجل بضعة سنتيمترات عن الأرض ، وهو وضع المشنوق من قدميه الشهير فى أوراق (التاروت) ..

وحين أفاق الرجل المقيد أخيرًا ، راح يتلوى وقد احتقن الدم فى يافوخه .. لابد أن كل شىء كان أحمر فى عينيه .. أحمر ومقلوبًا ..

قالت له بقسوة اكتسبتها عن جدارة :

ـ « مرحبًا بك فى الجحيم .. ما اسمك ؟ »

بصوت مبحوح منهك قال :

ـ « أنا (أرسلان آراه) .. من (طبرستان .. »

ـ « تكلّم إذن .. من أرسلك ؟ »

ضحك قليلاً فاهتز الحبل الذى يحمله ، وبرغم وضع الوطواط الذى كان فيه .. ثم قال :

ـ « تستطيعين قتلى أيتها الحسناء بدلاً من إضاعة وقتى ووقتك .. إن الفداوية لايخضعون للاستجواب .. »

ـ « صحيح ؟ سنرى ذلك .. »

★ ★ ★

ولمدة ساعتين جربت (عبير) كل الأساليب السادية للتعذيب ، تلك التى سمعت عنها أو قرأت عنها .. جربت الحرق بالشموع والتمزيق بالخناجر والماء المثلج والماء الساخن والركلات و ... و ...

لكن الوغد كان صامدًا بحق .. لقد بدأت تشعر بالخوف من نفسها ؛ فهى لم تحسب قط أنها تملك داخلها كل هذا العنف ؛ لكنها كانت تعرف أن مصرع (الخيام) - وهو الشاعر الحزين الزاهد فى الوجود - كان هو الزناد الذى أطلق كل هذا العنف منها ..

وكان التاجر العجوز يجىء من حين لآخر مرتجفًا ، ويقول لها :

- « ألم يتكلم بعد ؟ إذن ارحميه وارحمينا ! »

- « عُدْ لفراشك يا جدّى ! »

وبعد ساعة أخرى جلست تلهث على الأرض ، ترمق رأس الرجل المقلوب المحتقن فى غل .. لو طاوعت نفسها لمزقته بأسنانها ، لكنها كانت راغبة فى أن تعرف .. ليس من أرسله طبعًا فهذا معروف ، لكنها تريد معرفة تفاصيل القلعة .. كيف يتحركون وماذا يفعلون ؟ أين (الصبّاح) ؟

وهنا خطرت لها فكرة ما ..

لقد كان القاتل يلبس ثياب متسول مهلهلة واسعة ،

لكنها كانت قادرة على الحكم على بنيته .. إنه قصير القامة دقيق التكوين .. ملامح وجهه قسيمة منمنمة إلى حدّ ما ، وإن اكتست بالقاذورات ، وغطتها لحية هائلة الحجم ..

هل يمكن أن ؟

* * *

بعد ساعة كانت قد ابتاعت ما يلزمها من ثياب سوداء وسلاح .. لحية ؟ بالطبع لا لأن اللّحى لا تباع فى أسواق (نيسابور) ، لكنها استطاعت أن تصنع واحدة من فراء الخراف ، ولصقتها بشكل ما على وجهها ..

كيف تبدو ؟

إنها لن تخدع أم (أرسلان) ولا زوجته ؛ لكنها ستكسب بعض الوقت حتى ترى (الصبّاح) نفسه .. عندئذ ...

وماذا تفعل بأسيرها ؟ لن تفعل شيئًا .. ستكممه وتتركه معلقًا كما هو .. وليأمل فى أن تتحمل شرايين

مخه هذا الوضع طويلاً دون أن تنفجر .. هذه مشكلته على كل حال لا مشكلتها ..

كان سيدها التاجر نائمًا ، لذا لم تودّعه ..

اقترضت جوادًا من جواديه الموجودين فى الإسطبل ، وهرعت تخبّ به عبر شوارع (نيسابور) التى التفت بالظلام ..

إلى الشمال ..

إلى قلعة الموت ..

★ ★ ★

رحلة رهيبة هى ..

عبر جبال فارس الوعرة ، ووديانها الموحلة ، تركض بجوادها وقد اكتسبت ملامح الدور الذى تلعبه تمامًا .. كأن تنكرها جعلها أقوى وأشجع .. لم تخف الذئاب المسعورة التى راحت تركض وراءها ، محاولة نهش ساقى الجواد الخلفيتين .. لم تهب الوطاويط المحلقة فوق رأسها .. لم تخش ألاعيب الظلال ولا رهبة الأفق المخضب بلون الشفق ..

إلى الشمال .. إن وعاء الدبّ الأكبر يهدى خطاها ..

★ ★ ★

وككل القلاع كانت قلعة الموت (شاه دز) تربض ككابوس وسط الضباب .. إن كل القلاع مخيفة رهيبة .. لاتوجد استثناءات على ما يبدو ..

ومن مكمنها وراء صخرة عالية ؛ زحفت قليلاً لتأخذ صورة بانورامية للمشهد .. كان المكان مدججًا بالحراس الأشداء الغائبين عن الوعى حتمًا .. هؤلاء يقتلون دون أن يشعروا بما فعلوا ..

معنى وجود الحراس أن هناك كلمات سرّ .. وهى لاتعرف ماتقول .. ومحاولة الاقتراب معناها الموت الأكيد .. موت بلا فائدة ..

كانت غارقة فى أفكارها ، حين ظهر فارس يركب جوادًا ، واتجه فى تؤدة إلى البوابة المعدنية هائلة الحجم ..

من أعلى جاء صوت أحد الحراس يسأل فى خشونة :

ـ « كلمة السر ؟ »

كانوا حمقى لحسن حظها ، وكل الحراس حمقى دائمًا .. إنها لقاعدة ثابتة .. لأن الضيف القادم صاح بصوت يوقظ الموتى :

ـ « خوداه حافظ .. »

فانفتحت البوابة العملاقة ، وغاب القادم داخلها ..

ابتسمت (عبير) فى رضا ..

هذا هو الحل .. لقد جاء بصورة سهلة حقًا ..

(خوداه حافظ) .. المهم ألا تنسى ، وأن تكسب صوتها الخشونة الرجولية اللازمة .. وترجلت عن حصانها واتجهت إلى البوابة فى ثقة .. ثقة من دخل هنا مرارًا ، وضاق ذرعًا بروتين الأمن هذا ..

ـ « كلمة السر ؟ »

ـ « خوداه حافظ »

ودعت الله ألا تكون هناك كلمة سرّ لكل واحد من القادمين ، أو أن تكون كلمة السرّ مما يتبدل كل ربع ساعة .. أو ... أو ...

لكنها دخلت ..

* * *

وها نحن أولاء فى الموقف الذى بدأنا به قصتنا ..

لقد قالت للحراس إنها (أرسلان) الفداوى ، جاسوس (الصبّاح) فى (نيسابور) .. بالطبع لديه أخبار طيبة عن قتل (الخيّام) ..

وأدخلت إلى الرجل كما رأينا ، لكنه لم يكن ممن يُخدعون بسهولة ..

لقد عرف أنها ليست (أرسلان) ..

* * *

١٠ ـ ضيفة برغم أنفها ..

فما إن قال (الصبّاح) كلمتـه بهذا الهدوء ، حتى خرجت عشرة سيوف من قرابها محدثة الكثير من الـ (كلاك) والـ (كلينج) ..

كانت يد (عبير) فى اللحظة ذاتها فى منتصف الطريق إلى عنق (الصبّاح) حاملة الخنجر الذى أخفته بين ثيابها ..

وهنا شعرت بيد حديدية تعتصر يدها ، على طريقة المصارعة الشهيرة التى ترغم أوتار الكف على الارتخاء ..

بالطبع سقط الخنجر على الأرض ..

ابتسم (الصبّـاح) صـاحب اليد ، ورفـع عينيـه المفزعتين إلى رجاله ، وقال :

ـ « دعوه .. إنه فتى طيب القلب .. »

وبرفق نـزع قطع الفراء الملتصقة بوجهها ، ثم انتزع العمامة ..

هنا دوّت شهقات القوم غير مصدقين :

ـ « ماذا ؟ فتاة ؟ »

قلّد لهجتهم المندهشة فى سخرية ، وقال :

ـ « نعم فتاة .. يجب أن تداووا عيونكم .. إن هذا واضـح لكـل ذى عينيـن ، وواضـح أن هـذه اللحية مزيفـة .. مزيفـة بطريقـة بدائيـة خرقـاء .. إن المـرأة لاتفلح أبدًا فى أن تتنكر كرجل مُقنـع ، بينمـا يستطيع الرجال ذلك بسهولة .. والسبب هو أن كل رجل يحمـل جزءًا من الأنوثـة فـى ذاتـه ، بينمـا لاتوجد امرأة إلا وهى نقية بلا ذرة ذكورة (*) ..

« والخلاصة هنا هى أنكم مجموعة من الحمقى .. »

ووضع أنامله المخلبية تحت ذقنها ، وقال :

(*) هذا صحيح ، ومن الواضح أن الرجل يعلم شيئًا أو شـيئين عن الهرمونات والجينات المحددة للجنس !

ـ « بالإضافة لهذا أنا أذكرها .. إن (الحسن) لا ينسى وجهًا حتى لو رآه منذ عشرين عامًا أو ثلاثين أو مائة .. أنت تلك الجارية التى كانت تميل إلى (الخيام) .. (شورانكيز) .. أليس كذلك ؟ »

هزّت رأسها لتريح خصلات الشعر الأسود على كتفيها .. وقالت بصوت مبحوح ممرور :

ـ « بلى .. »

ـ « وهل لى أن أفهم من هذا أن (أرسلان) أدّى مهمته بنجاح ؟ »

ـ « بلى .. »

ـ « فهمت .. ما كان لحسناء مثلك أن تتورط فى هذا كله إلا بدافع الحبّ ، والانتقام لمن تحبّ .. لكنها محاولة يائسة يا صغيرتى .. جريئة لكنها يائسة .. ما كنت لتخرجى حية من هنا .. »

وقبل أن تتكلم (عبير) قال ضاحكًا :

ـ « ويحى ! بالطبع أنا أنسى طبائع الأشياء .. كان

ما يهمك قتلى ثم لا يهم شىء بعد هذا .. مفهوم .. مفهوم .. »

وكانت (عبير) تعرف جيدًا أن محاولتها يائسة .. وكانت تعرف أن نظرة واحدة من (الصبّاح) ستهدم تنكرها .. فلو لم يتذكر وجه جاسوسه (أرسلان) ـ وهو ما كانت تأمله لكثرة أتباعه اليوم ـ فلسوف يتذكر وجهها الذى رآه فى (نيسابور) منذ أعوام ..

كل ما أملت فيه هو دقيقة واحدة تجعلها قريبة منه ، وبعدها ينتهى كل شىء له ولها ..

لقد قامرتْ وخسرتْ كل شىء ..

يجب أن تقبل هذا ..

* * *

قال لرجاله وهو يعود للكتابة ، دون أن ينظر لها :

ـ « هذه (شورانكيز) .. ضيفة مكرمة هنا .. خذوها إلى خدر مناسب ، وأعطوها ثيابًا حريرية وعطورًا وماءً للاغتسال .. إنها ضيفة كما قلت لكم ..

لا أحد يضايقها أو يتحرش بها .. أحضروا لها ماء ورد ولبنًا وعسلاً .. »

وواصل الكتابة حتى نسى أنها وأنهم حوله ..

واقتادها الرجال الأشداء المدججون بالسلاح عبر جدران القلعة الحجرية الهائلة .. لاصوت سوى صوت أقدامهم تضرب الأرض ضربًا ..

أخيرًا فتحوا لها بابًا خشبيًا غليظًا ، فوجدت أن (الصبّاح) لم يكن يعانى من نقص الإمكانيات هنا ..

كان هناك حمام صغير أقرب إلى مغطس فى أرض رخامية ، ومتكأ من الوسائد على بعد خطوات من الحمام .. وفى ركن القاعة كان فراش أنيق تحيطه الستائر ، وثمة طاووس أو اثنان يخطران هنا أو هناك ..

ثمة جارية زنجية تحمل دلّـة مذهبة ، وجارية شقراء - أوكرانية على الأرجح - تحمل طستًا فضيًا للغسيل ..

وبالطبع كان هناك طبق الفاكهة الشهير الذى يحوى

التفاح والرمان والموز .. كلا لم تكن هناك خمور لأن (الصبّاح) كان صادقًا فى تحريمها على نفسه ومن معه ، إنما كانت هناك زجاجة ملأى بعصير الرمان وأخرى بالعنب الطازج الذى لم يتغير طعمه ..

ودنت منها إحدى الجاريتين ، ودعتها إلى الحمام .. الدافئ العطر الجميل ..

نظرت للوراء فوجدت أن الحراس انصرفوا وأوصدوا الباب .. لامانع أبدًا الآن .. إنها تشعر أن كيانها كله صار معجونًا بالتراب من جراء رحلتها عبر جبال (إيران) الوعرة ..

★ ★ ★

وعلى ضوء الشموع العديدة ، راحت الجارية الشقراء تعزف على القيثارة لحنًا حالمًا بطيئًا .. بينما جلست (عبير) تلتهم الفاكهة كأفراس النهر ..

أخيرًا سألتها بفم ملىء :

- « هل هذه هى غرفة (الصبّاح) ؟ »

- « لا .. إنها للضيوف فقط .. »

- « هل تريدين القول إن لديه غرفة أفخم من هذه ؟ »

قالت الجارية بلهجتها الأجنبية المحببة :

- « لا .. بالطبع لا .. إنه ينام على الأرض فوق (الدوست) ، ولا يدخل هنا أبدًا .. »

كان على (عبير) أن تتوقع هذا .. فالرجل من الطراز الخشن العنيف الذى لا يملك أية شهوة سوى السلطة والنفوذ .. هذا الطراز من الرجال يقسو على نفسه كثيرًا ، ولا يهتم بأين نام ولا بماذا أكل .. كل مايريده هو أن يرى أفكاره تتحقق والقوم يمتثلون له ..

لقد كان (غاندى) يحكم الهند كلها - فعليًا لا رسميًا - لكنه ظلّ عارى الجذع ، يجلس على الأرض ، ويغزل من صوف الماعز ثيابه ، ويشرب لبنها .. ولو شاء حياة الترف لمنحها الهنود له فورًا ..

الفارق هنا طبعًا أن (الصبّاح) لم يكن (غاندى) .. الأول يخدع الناس ويدّعى النبوة ليحكم .. والآخر يدعو للمقاومة السلبية ويصبر كى يحكم شعبه نفسه بنفسه ..

وسمعت الفتيات الثلاث قرعات على الباب ، ثم جاء صوت غليظ يقول :

- « إن مولاى (الصبّاح) يطلب الفتاة (شورانكيز) .. فهو بصدد معجزة جديدة من معجزاته ! »

نظرت (عبير) إلى الفتاتين بدهشة ، وتساءلت :

- « معجزة جديدة ؟ »

قالت الجارية السوداء فى رهبة :

- « نعم .. لابد من معجزة كل أسبوع .. هذا يطمئن قلوب الأتباع .. »

خرجت إلى العراء بعد الحمام مباشرة لو بختها كثيرًا .. لكن هذا فى عالم الواقع ، أما فى (فانتازيا) فلاشىء اسمه الالتهاب الرئوى ..

كان الأتباع واقفين خارج القلعة ينظرون إلى أعلى .. إلى جبلين يلوح ظلهما جاثمين على صفحة السماء التى اتخذت لونًا كحليًا مهيبًا .. وكانت شفاههم ترتجف هولاً وتهيبًا ..

وقفت وسطهم ، ولاحظت أنه لا أحد يلاحظها على الإطلاق ..

ومن بين الجبلين رأته يرتفع ..

يرتفع ببطء لكنه أسرع بكثير من أى معدل طبيعى ..

قرص القمر البراق اللامع الأصفر الشاحب يعلو ويعلو ..

يتصايح الناس فى هلع وانبهار :

ـ « لقد فعلها .. أتى بالقمر فى غير موعده !! »

لكن (عبير) ـ بالطبع ـ لم تكن مستعدة لابتلاع شىء من هذا .. إن الناس ينظرون ليصدقوا بينما هى تنظر لتتبين الخدعة .. لا أحد يملك سلطة على الشمس والقمر إلا خالقهما ، ومعنى ما يحدث أن هؤلاء مجموعة من المخابيل ، وأن (الصبّاح) يمارس خدعة بارعة ..

ولأنها شحذت عقليتها النقدية جيدًا ؛ استطاعت بسهولة أن ترى البرميل المفرغ من قاعدته وأعلاه ،

والذى ربط من جانبيه بحبلين ، بينما من خلفه نار ملتهبة تظهر من فتحته كأنها القمر(*) ..

وبعد قليل بدأ القمر الصناعى يهبط من جديد ليتوارى بين الجبلين ، إنهم فى السينما يستعملون مصباح (الآرك) لإحداث تأثير مماثل ، لكنهم لا يزعمون أنهم يقومون بمعجزة ما ..

* * *

شعرت بيد تدفعها من جديد إلى داخل القلعة ، فعادت مبلبلة الأفكار .. تعرف أن عليها أن تهرب ، ولكن كيف ؟

وفى خدرها رقدت على الفراش تصغى لعزف القيثار ، وتتذكر (عمر الخيام) .. (الخيام) الشاعر الرقيق المرهف الذى يؤدى الفناء دوره ببراعة فى جسده الآن ..

إنها ستنتقم له ..

(*) حيلة حقيقية كان (الصبّاح) يمارسها كثيرًا ..

ستنتقم ولو كان هذا آخر شىء تفعله فى حياتها ..

وكانت نظريتها قد صارت ناضجة تمامًا الآن .. لابد من قتل (الحسن بن الصبّاح) .. هذا قد صار واجبًا مقدسًا بريئًا من الأهداف الشخصية .. وقتله سيؤدى نفس دور قتل جرثومة الطاعون .. ليس آثمًا بل سيحقن دماء آلاف من أبناء (إيران) ، وينقذ آلاف آخرين من الفتنة فى دينهم ..

إن كل لحظة تزيدها يقينًا بأنها كانت على حق ، حين غادرت (نيسابور) متنكرة بلحية هى فراء خروف ..

ولكن كيف تنفذ خطتها هذه ؟

★ ★ ★

١١ ـ فداوية !

« لماذا لا تقتلنى لينتهى كل هذا الضجيج ؟ »

قال لها وهو يقتادها عبر ممرات القصر الواسعة الكئيبة ، التى لا تنيرها إلا المشاعل حتى فى رائعة النهار :

ـ « ما زال أملى أن أضم تابعًا بدلاً من أخسر واحدًا .. »

وابتسم بخبث وهو ينقل قامته الفارعة من على ساق إلى أخرى ، وأشار إلى أحد الفداوية الواقفين بقربه ، وقال لها :

ـ « إنهم يؤمنون بى .. هل ترين هذا ؟ »

ـ « أراه .. »

قال له (الصبّاح) دون أن ينظر إليه :



أخرج خنجرا جميل المنظر ، ورفعه فى الهواء بمجمع قبضتيه ثم أغمده كله فى بطنه ..

ـ « اقتل نفسك ! »

ولم يناقش الفداوى أو يتأكد من أنه سمع الأمر جيدًا ، ولم يحاول أن يجادل أو يفهم أكثر ..

أخرج خنجرًا جميل المنظر ، ورفعه فى الهواء بمجمع قبضتيه ثم أغمده كله فى بطنه ، على طريقة (الهاراكيرى) الخاصة بالأخوة اليابانيين .. لم يمت تمامًا فأدار الخنجر مرتين ، ثم بصق بعض الدم وسقط على وجهه ..

ـ « هل ترين ؟ »

قالها (الصبّاح) بزهو ، ومعه حق .. فما من حاكم ولا قائد ظفر بكل هذا الولاء من رعاياه أوجنوده منذ ولد التاريخ ..

قالت (عبير) وقد هزّها المشهد :

ـ « لست مندهشة .. إن القنب الهندى قوى التأثير حقًا .. »

ارتفع حاجباه فى دهشة مصطنعة :

- « آه ! وتعرفين هذا أيضًا ؟ لابد أنه (الخيّام) .. »

* * *

- « وما ذنب هذا البائس كى تقتله ؟ مع (النظام) كان الأمر مفهومًا ، لأن كليكما طلب الشىء ذاته .. كانت الحاجة واحدة وكان طالباها اثنين .. لكن ما ذنب (الخيام) ؟ »

أصلح من وضع عباءته السوداء على كتفيه ، وقال :

- « لم يكن (الخيام) صديقًا لى .. لم يكن يحبنى .. أنا أقبل هذا .. لكنى - حين أصير إمام هؤلاء جميعًا - لا أريد أن أترك واحدًا خلفى ، يحكى للناس تفاصيل التفاصيل عن صباى .. لاينبغى أن تكون للإمام خلفيات تاريخية .. لا يجب أن يكون له ماض .. ولو كان له ماض فلا ينبغى أن يكون ما يحكيه (الخيام) عنى .. »

- « وتقتل صديق صباك كى لا تكون لك خلفيات تاريخية ؟ »

- « إن للسياسة تبعاتها المؤسية للأسف .. لكن (الخيام) ما كان ليصمت لو سألته ذلك .. لا أحد يستطيع أن يسكت الشعراء .. كثيرون جربوها ووجدوا أن الحرق هو الحلّ الوحيد .. »

كانا الآن يقفان عند سور القلعة ..

السور المطلّ على الوادى تحتهما ، والذى غمره الغبار - أم هو ضباب ؟ - فلا ترى سوى بعض نتوءات الصخور البارزة ، كأنها جزر فى بحر رمادى غريب ..

استدار (الصباح) حيث كان عدد من الفداوية يقفون جوار السور .. نظر لها ونظر لهم ، ثم صاح بصوت جهورى آمر :

- « إلى أسفل ! »

وثب الرجال جميعًا دون تردد أو لحظة شك واحدة ..

لم يصرخ أحدهم ، ولم يكن بوسعك أن ترى جثثهم حين تناثرت فى الوادى لأن الضباب / الغبار كان يغطيها .. لكنك كنت تستطيع سماع أنين أحدهم .. واحد تعس الحظ لم يمت فورًا ..

صاحت (عبير) فى جنون :

ـ « كفى ! أنت تقتل رجالك كلهم كى تبرهن لى على إخلاصهم لك ! والمشكلة انك تقتل المخلصين فعلاً .. »

فى رضا قال وهو يبتعد عن السور :

ـ « إن مشاهد كهذه تجعل المترددين أكثر إخلاصًا .. حين يرى تابعى مدى إخلاص من سبقوه ، يبحث عن درجة أعلى من الإخلاص لى .. »

جيش من (الروبوتات) ..

هذا هو ما صنعه (الصباح) .. وهو لا يعرف بالطبع معنى كلمة (روبوت) لكنه يحسها .. (روبوتات) فى قصص الخيال العلمى ، و (زومبيون) فى قصص الرعب .. نفس الشىء .. الطاعة العمياء بعيون زائغة ، ونفوس لا تملك حق تحديد المصير ..

* * *

وفى مودة زائدة ؛ جعلها (الصباح) ترى أجزاء قلعته ..

رأت كيف يعدون الدعاة .. وكيف يعدون الفداوية .. رأت التدريبات الجسدية العنيفة التى يخوضها هؤلاء ، والتى لم يخضها جندى صاعقة فى أى جيش معاصر .. إن حياة الإنسان لا تساوى شيئًا عند (الصبّاح) ، ولا تساوى شيئًا عند صاحبها أيضًا ..

كانت تتساءل عن سبب إبقائها حية ..

فكرت فى كل الاحتمالات ؛ لكنها استبعدت احتمالين :

١ ـ احتمال أن يكون قد أحبها : مستحيل .. لأنه قد تقدّم فى العمر ، وشاخ قلبه وازداد قسوة ، ولم يكن أمام عينيه إلا هدف واحد : أن يحكم البلاد كلها ثم يغزو العالم .. هذا الهدف جعله عديم الاهتمام بالنساء ، وبالملذات عمومًا حتى المأكل والمشرب .. لقد كان يأكل كسرة خبز فى الإفطار والغداء والعشاء ، ولا يشرب إلا الماء القراح ..

٢ ـ إنه يريد انضمامها إليه : هو قال هذا لكن تصديقه عسير .. ما الذى تملكه فتاة وسط هؤلاء السفاحين غائبى الوعى؟ إنهم أقدر منها طبعًا على تنفيذ مهامهم هذه ..

لكن ـ كما عرفت فيما بعد ـ كان الاحتمال الثانى هو الاحتمال الصحيح ، وكما قال لها بعد ثلاثة أيام :

ـ « ثمة أشياء يعجز عنها الرجال وتقدر عليها النساء .. إن المرأة بأنوثتها وذكائها تقدر على انتزاع الشك من أى رجل .. الرجل الذى لو دنا منه رجل آخر لمزّقه إلى أشلاء .. »

ـ « تعنى شيئًا مثل (شمشون) و (دليلة) لدى العبريين ؟ »

ـ « بل أتكلم عن (سميراميس) ! الملكة (سميراميس) التى أقنعت زوجها بالتخلى عن العرش لها ، ثم كان أول فرمان تصدره هو قطع رقبته ! دلينى على رجل آخر يصلح لهذه المهمة .. »

وأشار إلى رجاله المنهمكين فى المصارعة ولوى شفتيه مشمئزًا :

ـ « هؤلاء الرجال ! تبًا لهم بعقولهم الضيقة ، وعضلاتهم المتضخمة ، ولحاهم المشعثة الثائرة ، وروائحهم الكريهة .. إنهم لا يقدرون إلا على العنف .. أما أنت فإننى أعدك لتكونى ملكة ! »

قالت فى عصبية :

ـ « أنا لن أتعاون معك .. ظننت هذا جليًا .. »

ـ « لا أحد يرفض التعاون معى .. »

قالت ضاغطة بأسنانها على شفتيها :

ـ « إن رجالك يؤمنون بك ، أما أنا فلا .. وأنت تعرف طبعًا أننى سأغمد فى صدرك أول خنجر يقع فى يدى ، لدى أول لحظة تعطينى ظهرك فيها .. »

أخرج من جيبه منديلاً ، ومسح به شفتها السفلى :

ـ « يا لكل هذه الدماء ! حذار يا بنيتى وإلا أدميت

شفتك تمامًا .. أنا أعرف كل هذا ، وأعـرف كيـف أعالجه .. »

ولم تدر أنه يتكلم عن علم إلا بعد الظهر ..

لقد قدمت لها الجوارى طعام الغداء ، فأكلت بشـراهة ..

إن السجن لم يفقدها شهيتها كما هو واضح ..

بعد الغداء ثقلت أجفانها ، وشعرت بمعدتها تتقلص ..

قالت لنفسها :

ـ « تبًا .. لقد دسوا لى شيئـ .. شيئًا من الفـ .. قـ .. »

ثم لم تعد هناك ..

* * *

١٢ ـ حديقة النزارية ..

أنغام .. أنغام .. أنغام ...

رائحة عطرة تداعب خياشيمها ..

إنها تغوص فى الحرير .. ساقاها تحملانهـا لأعلى ثم تهويان لأسفل ، إلى بحر من حرير ..

وتتفتح عينيها ببطء لترى ..

* * *

كانت هناك على أريكة طويلة ، وعلى بعد مترين منها يوجد نهر تترقرق مياهه ، وفوقهـا تسبح بجعـة فى رشاقة ، تلوى عنقهـا الطويل لتلتقط شيئًا من بين ريش جناحيهـا .. وعلى المـاء تنتثر زهور البنفسج والأقحوان ..

أنغام .. أنغام .. أنغام ..

عند قدميها تتربع جارية لم تر (عبير) أجمل منها ،

(تطرقع) لها أصابع قدميها بيد خبيرة .. وعند رأسها تقف جارية أجمل تحرك مروحة قرب وجهها .. مروحة موشاة بالمنمنمات الفارسية التى يسمونها (مدرسة بهزاد) ..

رفعت رأسها لأعلى، فرأت شجرة مثقلة بالثمار، تتدلى غصونها نحوها كأنما تقول لها، خذينى .. أنا لك ..

تمدّ يدها وتقتطف تفاحة نضرة لامعة ..

يا لها من رائحة عطرة !

★ ★ ★

لكن جزءًا فى ذهنها ظل يقاوم .. ظل يصفعها بقسوة ..

أفيقى يا بلهاء ! هذا ليس حقيقيًا .. أنت تعرفين جيدًا أنهم دسوا لك القنب الهندى فى طعامك .. أنت تعيشين تحت تأثير الحشيش الآن، وما هذه الرؤى إلا هلاوس ..

لكن جزءًا آخر فى ذهنها يقول : ليس الحشيش قادرًا على هلاوس من هذا النوع .. هلاوس ذات ملمس وطعم ورائحة .. لو كان عقار الهلوسة ــ LSD الذى يتعاطاه الهيبز ـ معروفًا فى هذا الزمن ؛ لكان هذا تفسيرًا كافيًا .. لكن الحشيش لايقدر على هذا كله ..

معنى هذا ببساطة أن ما تراه حقيقى .. حقيقى تمامًا ..

★ ★ ★

كان الارتخاء اللذيذ يتسرب إلى عضلاتها ..

ورأت طفلاً جميلاً ـ كما كان الإغريق يرسمون (كيوبيد) ـ يمشى وسط هذه الحديقة الغناء، يحمل دورقًا زجاجيًا مليئًا بالماء البارد .. ماء ترى أبخرته على الزجاج، فتجن شوقًا إليه ..

جاءها وصبّ لها الماء فى كأس من بلور، وهو يضحك ضحكة طفولية عذبة .. شربت مرتين وثلاثًا .. إنه الماء ممزوجًا بماء الورد، يدغدغ أعصابها ..

ونهضت من مكانها ، فهرعت جارية وراءها تنثر تحت قدميها الرياحين من طبق تحمله ..

كانت روضة لم تر مثلها قط من قبل ، واستطاعت أن ترى أرائك أخرى يرقد عليها رجال خشنو المظهر يضحكون ويشربون ..

ومن بعيد رأت مقصورة من الزجاج الملون ، وشرفة تحيط بها أغصان اللبلاب ، وقد جلس تحت الزجاج رجال آخرون يدخنون النارجيلة ويثرثرون .. بينما الجوارى يعزفن لهم على الأعواد ..

ما هذا المكان ؟

ثمة نافورة يخرج الماء منها من سمكة حجرية تتلوى ، وقد التفت الحسان حول مائها يبللن سيقانهن ويتضاحكن ويتقاذفن الماء .. ومن بعيد كان عدد من الخيول البيض يركض ، ومعارفه تتطاير فى الهواء ، وعلى صهوة أول الخيول كان طفل .. طفل كالذى سقاها الماء منذ دقائق ..

* * *

ومن جديد غاصت فى الحرير ..

وشعرت بأن العالم يذوب من حولها ، فلم يبق إلا صوت يتردد بلا انقطاع .. صوت هامس لكنه حاسم :

- « أنت دخلت الجنة .. (الصبّاح) أخذك إليها وعاد بك منها .. »

والصوت يترقرق ليمتزج بأبخرة لاتدرى مصدرها ..

يتكرر مرارًا ، ثم يتلاشى ..

وتغيب عن الوعى ..

* * *

صحت لتجد نفسها فى الفراش ، والجارية الشقراء تمسح وجهها بالماء البارد ..

هبت مذعورة وقد أدركت ما حدث .. لقد سمعت الكثير عن حديقة (النزارية) ، وهى المكان الذى ينقل إليه (الصبّاح) أتباعه بعد أن يخدرهم .. وهناك يقنعهم بأن هذه هى الجنَة ..

طبعًا هذا كلام فارغ لأن الجنَة الحقيقية فيها

ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، لكن التأثير كان مقنعًا بالنسبة إلى العامة الجهلاء ، خاصة حين يلعب القنب الهندى بعقولهم[*] ..

واستعاذت (عبير) باللّه من الشيطان الرجيم .. لقد كان (الحسن) شيطانًا حقيقيًا يفعل ويقول كل ما يفعله شيطان .. إنه وغد عبقرى ، وقد أجاد نصب شباكه لاصطياد العقول الساذجة ..

لكن أين تقع هذه الحديقة بالضبط ؟

لا أحد يعرف .. قالوا إنها قريبة من القلعة ، وقالوا إنها بين جبلين فى (خراسان) ..

لكن سرّها ظل مستغلقًا ، ولم ينجح أحد قط فى العثور عليها .. إن مكانها كان سرًّا لا يعرفه سوى القليلين ، وكان إفشاء هذا السرّ هو آخر عمل يقوم به المرء فى حياته ..

بالتأكيد كانت قريبة من القلعة ؛ لأنه من العسير نقل كل هؤلاء الرجال الغائبين عن الوعى إلى هناك ..

(*) هذا صحيح أيضًا .. وقد وصفه الرحالة الإيطالى (ماركو بولو) ..

هنا قطع على (عبير) خواطرها دخول (الصبّاح) ..

* * *

ارتجفت الجاريتان وتراجعتا إلى الوراء ، لأنهما لم تريا (الصبّاح) فى هذه الغرفة من قبل .. كان هذا أقوى من تحملهما ..

أما هو فكان يبتسم فى ثقة ، وتقدّم نحو (عبير) ليقول لها :

– « هل أحببت الجنة ؟ »

لم يكن عقلها قد استرد صفاءه بعد ، لكنها صاحت كى تنتزع قبضته التى تخنق روحها :

– « كف عن هذا الهراء أيها الشيطان ! إن ألاعيب الحواة هذه لا تناسبنى .. »

– « غريب هذا .. فلماذا إذن أطعت أوامرى ؟ »

وثبتُ من الفراش ، وصاحت فى غيظ :

– « أطعت ماذا بالضبط ؟ »

– « لماذا قتلت القاضى (رزم طهسمبى) ؟! »

ضربت صدرها بكفها فى دهشة :

- « أنا قتلت من ؟ »

- « القاضى (طهسمبى) .. لقد خرجت من الجنة مليئة بالعزم والحماس ، وانتظرت الرجل حين خروجه من المسجد بعد صلاة العصر ، وأولجت خنجرًا فى بطنه ثم فررت بين أزقة (خراسان) قبل أن يقبضوا عليك .. إن فتاة رقيقة مثلك لأقدر على الفرار من هؤلاء التيوس الذين يعملون معى .. ما إن يحاول الواحد منهم هزّ كرشه حتى يكون الناس قد أحاطوا به ومزقوه إربًا .. »

طبعًا لم تصدّق .. الرجل كاذب .. منذ متى لم يكن كاذبًا ؟

قال وهو يشير إليها :

- « ستجدين الخنجر الملوث بالدماء فى نطاقك .. »

حقًّا كان هناك .. أخرجته بيد مرتجفة وتأملت نصله ، ثم ألقته أرضًا وصرختْ :

- « هذا لايدلّ على شىء .. أنتم دسستموه لى فى أثناء غيبوبتى .. »

- « يمكنك أن تعتقدى هذا ، لكن لاتصدقيه تمامًا .. »

واستدار نحو الباب ، وقال لها دون أن يلتفت للوراء :

- « مهمتك التى أنجزتها هذه تدل على أنك فداوية ممتازة .. مهمتك التالية هى أن تذهبى إلى مصر وتقعى فى حبّ (المستعصم) أو تجعليه يقع فى حبك بعبارة أكثر دقة .. »

- « أنا ؟ ولماذا ؟ »

كان قد خرج من الباب فعلاً ، حين جاءها صوته :

- « لماذا ؟ كى تقتليه حين تنفردين به طبعًا ! »

★ ★ ★

هل حقًّا فعلتْ هذا دون علمها ؟

هل قتلتْ إنسانًا وهى لاتعلم أنها قتلته ؟

★ ★ ★

وفى اليوم التالى قدموا لها طعام الغداء ..

فى هذه المرة قررت ألا تأكل شيئًا هنا .. ثم عدلت عن هذه الفكرة .. بالتأكيد سيعرفون كيف يرغمونها على تعاطى القنب ..

لهذا ملأت معدتها أمام الجاريتين ، ثم أعلنت أنها راغبة فى دخول الخلاء لأن المغص قد ...

أسرعت مذعورة إلى الخلاء ، وهناك مارست المهمة المقززة نوعًا : وضعت إصبعين فى حلقها وتقيأت ما أكلته كله .. لا بأس .. كانت لها صديقة تمارس (ريجيمًا) من هذا النوع ، لكن الأطباء نصحوها بألا تفعل لأنه قاتل ..

أخيرًا خرجت من الخلاء ، وكل عضلة فى جدار بطنها تنتفض .. كان الاشمئزاز يقتلها والغثيان يمزقها ، لكنها تماسكت ..

ورقدت على الفراش ، وأغمضت عينيها تمامًا ..

* * *

من بين أهدابها المغلقة لمحت خيال الجاريتين يتحرك حولها ..

سمعت همسات أقرب للفحيح :

- « هل نامتْ أم غابتْ ؟ »

- « واضح أنها غابتْ .. لقد أدى الطعام دوره .. »

- « نادى (ارداش) .. »

وبعد دقائق شعرت بذراع قوية - ذراع (أرداش) - تحملها فى غلظة ، على كتفيه كأنما هى جوال .. أدركت أنه يمشى بها عبر ممرات قلعة الموت ، ثم سمعت أبوابًا تفتح وتغلق .. مزاليج تُزاح وتوصد ..

يبدو أن هناك عملية (تسليم وتسلم) تتم بصددها .. تستطيع أن ترى (أرداش) يحمل دفترًا يوقع عليه حارس الروضة : عدد واحد فتاة نائمة .. إنها عهدة ، ولو ضاعت لفتك (الصبّاح) به ..

أخيرًا تفتح عينيها ، لتدرك أنها فى روضة (النزارية) ..

* * *

من جديد تعزف لها القيان أنغامًا عذبة ، ومن جديد



وبعد دقائق شعرت بذراع قوية – ذراع (أرداش) – تحملها فى غلظة ، على كتفيه كأنما هى جوال .. أدركت أنه يمشى بها عبر ممرات قلعة الموت ..

(يطرقعن) أصابع قدميها ، ومن جديد الماء المثـ ... لا .. لا طعام ولا شراب هنا .. ظلّت فى هذا النعيم ساعة أو نحو ذلك ، ترمق الفداوية من حولها الذين يحسبون أنفسهم فى الجنة حقًّا ..

يا للحماقة ! يا للجهل !

أخيرًا قررت أن وقت العودة للغيبوبة قد حان ..

أغمضت عينيها ، وتظاهرت بأنها لم تعد هناك ..

والحقيقة هى أنها كانت هناك ..

★ ★ ★

من جديد شعرت باليد القوية تحملها فى الممرات ذاتها ..

هذا رجل يؤدى عمله جيدًا ، لكنه غير رفيق فى حمله ، ولابد أن كل عظمة من عظامها قد تحولت إلى مسحوق ..

شعرت بأنها توقف على قدميها قسرًا ..

شعرت بمن يصفع خديها فى قسوة ، وأن بعض الماء البارد يرش على وجهها ، ففتحت عينيها ..

فتحتهما لأنها أدركت أن هذا هو ما يتوقعون أن تفعله ..

* * *

كان (الصبّاح) جالسًا هناك كعادته على (الدوست) ، منهمكًا فى الكتابة بريشته ، ولم يرفع عينيه نحوها .. ولو رفعهما لأدرك الحقيقة دون جهد .. لقد كان ذكاؤه مخيفًا ..

قال لها دون أن يرفع عينيه :

- « (شورانكيز) .. تعالى هنا .. »

زحفت على ركبتيها مقتربة منه ، ورسمت على وجهها كل ما تقدر عليه من سمات البلاهة والغباء .. وسمعته يصرف المحيطين به ..

سألها دون أن ينظر :

- « هل استمتعت بوقتك فى الجنّة ؟ »

- « كل الاستمتاع يا سيدى ومولاى .. »

- « جميل .. جميل .. »

ثم فكر حينًا ، وقال لها :

- « ما زلنا بحاجة إليك قبل أن تذهبى إلى مصر .. إن لدىّ خصومًا كثيرين هنا .. ثمة رءوس يجب اقتلاعها قبل رحيلك .. لقد كنت بارعة حين قتلت (طهسمبى) أمس .. »

وارتجفت (عبير) برغمها ..

لقد كان كل هذا صحيحًا إذن .. لم يكذب الرجل .. وها هو ذا السيناريو الكريه يتكرر .. المفترض أن تقتل بريئًا آخر اليوم بالذات ..

قالت له بصوت رتيب آلى :

- « أمرك يا مولاى .. »

تحسس ذقنه بأنامله ، وأصلح من وضع عباءته ، وقال :

- « إن علىّ أن أحارب أعدائى بالقتل وبالفكر .. هل

تعرفين ما أفعله الآن ؟ إننى أردّ على فلاسفة السنية وخاصة ألدّ أعدائنا : الإمام (الغزالى) .. إن الرجل بارع .. بارع بحق ، ومنطقه قوى .. وقد كتب كتابًا اسمه (المنقذ من الضلال) يفنّد فيه دعوانا ، وكل ما أطالب به .. »

ـ « كتاب كهذا أشدّ خطرًا على (النزارية) من عشرة جيوش مجتمعة ، لهذا أردّ عليه وأهاجمه هنا .. »

وواصل الكتابة ..

كان مطمئنًا إلى أنها لا تعى ما يحدث ولا ما يقول ، لهذا أخذ راحته تمامًا ، وراح يحدثها بمكنون صدره بلا تحرز ..

لكنها لم تكن تصغى ..

كانت يدها على ساقها ، حيث ربطت الخنجر بقطعة من القماش .. خنجر البارحة الذى قتلت به القاضى .. الخنجر الذى ألقته على الأرض مذعورة ، ونسيه (الصبّاح) ونسيته الجاريتان ..

* * *

ـ « أنت تعرف طبعًا أننى سأغمد فى صدرك أول خنجر يقع فى يدى ، لدى أول لحظة تعطينى ظهرك فيها .. »

* * *

تقلصت يدها على المقبض ..

طعنة واحدة فقط فى المكان الصحيح ..

المهم ألا ينتبه قبل الأوان ..

* * *

١٣ـ الخاتمـــة ..

ارتفعت يدها فى الهواء ، ثم تصلبت ..

لم يكن (الصبّاح) منتبهًا لها ..

الغريب أنه كفّ عن الكتابة ، وأن رأسه كان متدليًا على صدره ، حيث جلس متربعًا على الأرض مسندًا ظهره إلى الحائط ..

ماذا دهاه ؟ ماذا حدث بالضبط ؟

هنا سمعت صوتًا ما كانت تحسب أنها ستفرح به إلى هذا الحدّ :

ـ « تك تتك تك ! »

رفعت عينها لتجد (المرشد) وقلمه الزنبركى الشهير ، يقف جوارها وينتظر .. لقد آن أوان الرحيل أخيرًا ..

قال لها وهو يتأمل (الصبّاح) :

ـ « لا داعى للعنف .. لقد مات الرجل ! ولو أخذت رأيى لقلت إن طعن جثة عمل لا أخلاقى ولا دينى .. »

تأملت الرجل الجالس الذى بدا لها كأنما نام فجأة ، وهتفت :

ـ « كيف ؟ فجأة وبهذه السرعة ؟ »

ـ « إن (الحسن بن الصبّاح) بشر ضعيف مثلنا ، ولابد أن يموت يومًا ما .. لقد حان أجله .. حان الآن بالذات .. »

وابتسم وهو يعينها على النهوض ، وأردف :

ـ « تخلصى من هذا الخنجر قبل أن يؤذى أحدًا .. حتى (الصبّاح) نفسه ليس أقوى من الموت .. لقد استردّ اللّه (تعالى) روحه ، وليكونن حسابه عسيرًا .. منذ ثوان كان الرجل غارقًا فى أمور دعوته وأحلام السيطرة .. الآن هو يواجه مشاكل مختلفة تمامًا .. »

نظرت إلى الشيخ الميت بخيبة أمل ، وقالت :

ـ « حسبت أننى سأقتله .. حلمت بأن أقتله .. »

ـ « ولحسن حظك لم تلوثى يديك بدمه .. إنها نهاية ماكان يحلم بها هذا الذى عاش حياته على العنف ومن أجل العنف .. لقد انتهى كما ينتهى المتسول والتاجر والحاكم والقائد وابن السبيل .. وطريقة النهاية لاتهمّ .. لقد انتهى وكفى .. »

ومعًا غادرا القلعة الرهيبة ..

★ ★ ★

سألت (المرشد) وهما يعبران نطاق الصخور الوعرة ، وسط الضباب :

ـ « هل كانت هذه نهاية (النزارية) ؟ »

ـ « بل ستستمر (النزارية) طويلاً جدًا .. ربما نحو قرنين من الزمان ، حتى يجىء (هولاكو) التترى ليكتسح كل شىء تحت سنابك خيوله .. ولسوف تندثر الدعوة ، حتى يجىء (أغاخان) فى القرن التاسع عشر ، ليعلن أنه الإمام الجديد .. طبعًا لن تكون حركته بذات الطابع الدامى الكابوسى ، لكنها ستنادى بالمبادئ ذاتها .. »

قالت له وهما يبتعدان :

ـ « عدنى يا (مرشد) .. »

ـ « أى شىء يا (أليس) .. »

ـ « عدنى بمغامرة مسلية باسمة بلا دماء .. »

★ ★ ★

وكان (المرشد) عند وعده ..

وفى القصة القادمة تخوض (عبير) مغامرة الوصول إلى القمر عن طريق طلقة مدفع عملاق ، أو عن طريق مادة (الكافوريت) ..

ترى أى الأسلوبين ينجح ؟

[تمت بحمد الله]

★ ★ ★

فانتازيا

مغامرات ممتعة
من أرض الخيـال

روايات
مصرية للجيب

قلعة السفاحين



د. أحمد خالد توفيق

هناك هذه القلعة فى (خراسان) .. وهناك الفداوية .. وهناك شاعر اسمه (عمر الخيام) .. وهناك كثير من الدماء التى تغرق كل شىء .. وهناك (عبير) .. وهناك قارئ يجد نفسه فجأة فى أقسى فترات التاريخ، وأخطرها ..

القصة القادمة

أرض .. قمر .. أرض

الثمن فى مصر ١٥٠ مـ
ومايعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

مطابع سلام التليلى